قصة الالحاد

السيد حسين الفياض

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، من كان مؤمنا منهم ومن كان من الملحدين ، وصلى الله وسلم على خاتم الانبياء صاحب الخلق العظيم ، المرسل بالهدى ودين الحق ابي القاسم محمد وعلى آل بيته الطاهرين المعصومين ، الصراط المستقيم للإسلام المحمدي الاصيل .

قال الله تعالى في كتابه المجيد :

((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)))[١] .

هل الإلحاد ظاهرة جديدة؟ فاجأني بعض الشباب بتوهمهم أن الإلحاد ظاهرة جديدة معاصرة! ولعل هذا التوهم هو ما دفع بعض الشباب المولعين بالتجديد وتتبع الموديلات في تسريحة الشعر والملابس الى اعتناق الإلحاد، جهلا منهم إن الإلحاد ظاهرة قديمة تأتي وتزول، كجهلهم أن موديلات تسريحة الشعر والملابس هي أيضا قديمة مكررة.

إن كان الإلحاد قديما، ايهما الاصل في البشرية هل هو الالحاد ام الايمان والتدين؟ يزعم الملاحدة ان الاصل في البشرية هو الالحاد وان التدين هو ظاهرة طارئة على المجتمع البشري لها اسبابها ، بينما يقول المتدينون بأصالة الايمان والتدين وان الالحاد حالة عرضية لها دوافعها الخاصة.

إن كان الإلحاد ظاهرة قديمة، فما هي الدوافع اليها وأسباب انتشارها الآن؟

هذا البحث يتكفل بالإجابة عن هذا الأسئلة عن طريق سرد تأريخي موجز لقصة الإلحاد مستقصيا الجذور ومتتبعا للسيرورة التاريخية ومشفوعا بالتحليل والنقد . وبمعرفتنا لقصة الإلحاد نستطيع الإمساك بالخيوط العامة

---

[١] - سورة النحل

المشتركة لهذه الظاهرة في مراحلها التاريخية المتعددة، ومن خلال معرفة الخيوط العامة نستخلص دوافع وأسباب الإلحاد المعاصر.

أما ((قصتي مع الملاحدة)) فسنفرد لها - إن شاء الله تعالى - كتابا خاصا مشتملا على حواراتي المفصلة مع الملاحدة ونجيب فيه تفصيلا على معظم الشبهات التي يطرحها الملاحدة.

السيد حسين الفياض

النجف الأشرف

١٤ / ٢ / ٢٠١٩م

توطئة

في بيان بعض المفاهيم

١ - الإلحاد ((Atheism))

اللحد والالحاد في اللغة بمعنى : الميل والانحراف عن الوسط ، والملحد هو المائل المنحرف عن حد الاعتدال ، ولحد القبر هو الشق الذي يكون في جانب من حفرة القبر يوضع فيه الميت[١] ، وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة في معناها اللغوي نفسه ، فقال تعالى :

((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)))[٢] حيث افترى بعض المشركين ومال عن الحق فزعم بشرية القرآن ونسبه لغير الله ، كما يفعل الملاحدة اليوم ، مدعيا ان النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم قد تعلم وتلقن القرآن من بعض الاعاجم اي غير العرب ، فرد الله تعالى على زعمهم بأن لسان الرجل الذي تميلون اليه وتنسبون اليه القرآن ، هو لسان اعجمي غير فصيح وهذا القرآن هو لسان عربي مبين في اعلى درجات الفصاحة والبلاغة فكيف يتصور صدوره من رجل اعجمي اللسان ! .

وقال تعالى : ((وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)))[٣] أي ان صفات الكمال المطلق هي حق حصري لله سبحانه فصفوه واعرفوه واعبدوه بها ، واتركوا المنحرفين عن الحق الذين ينسبون صفات الكمال المطلق لغير الله كالملاحدة الذين ينسبون صفات الله الى المادة ، واتركوا كذلك الذين ينسبون صفات النقص لله كالذين ينسبون الجسم والمكان والولد لله سبحانه ، فإن كل ذلك هو انحراف وميل عن الصراط المستقيم والدين القويم والفطرة السليمة .

وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

---

(١) راجع : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة ((لحد)) ، ج٣ ص٣٨٨

- مفردات الفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني ، مادة ((لحد)) ، ج٢ ص٣٣٢

٢ - سورة النحل

٣ - سورة الاعراف

(٤٠)))[١] أي ان الذين يكفرون بآيات الله ويحرفون دلالتها ويميلون بها الى غير جهتها الحقيقية ، وهي شواهد وجود الله وربوبيته ورسالته فينسبون آيات الله التكوينية كالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح لغير الله ، او ينسبون آيات الله القرآنية للبشر فيزعمون انها اساطير الاولين ، اولئك ليسوا بمأمن من العذاب ، فالله اعلم بمكرهم ولكنه يمدهم في طغيانهم يعمهون .

وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)))[٢] اي ان الذين يصدون الناس عن دين الله الحق وعن البيت الحرام الذي جعله الله مثابة وأمنا للناس جميعا ، ومن يبغون فيه الفساد والانحراف والميل عن القصد الذي وضعه الله لأجله وهو الهدى لدين الحق ، اولئك لهم العذاب الشديد جزاء على فعلهم هذا .

الالحاد اذن بحسب اصل اللغة العربية ، وبحسب الاستعمال القرآني يشمل كل ميل وانحراف عن الجادة الوسطى في كل شيء ، ولا يختص بالجانب الديني العقائدي ، ولكن شاع استعمال هذا اللفظ بعد ذلك في الانحراف الديني فقط ، فأصبح لفظ الالحاد ينصرف عند الاطلاق الى الانحراف والميل عن الدين الحق . والالحاد بهذا المعنى يشمل من لا يؤمن بوجود اله خالق للكون اصلا ، ويشمل من يعتقد بوجود اله غير الله كما يشمل من يتخذ دينا غير دين الله . ونحن بحسب اطلاعنا وحواراتنا مع الملاحدة الجدد وجدنا اكثرهم يحصر الالحاد في خصوص انكار وجود اله خالق للكون ونسبة وجود الكون الى المادة فهو كما يقولون : ((عقيدة قوامها انكار وجود الله))[٣] ، ولكن الملاحدة بهذا المعنى فئة نادرة بحسب الاستطلاع الموافق للعقل ، حيث انه يستحيل عقلا ان ينكر عاقل وجود اله خالق للكون بنحو الجزم ، الا من سفه نفسه والغى عقله ، بل وجدنا

[١] - سورة فصلت
[٢] - سورة الحج
[٣] - موسوعة لالاند الفلسفية ، اندريه لالاند ، مادة ((ATHEISME)) ج١ ص١٠٧

اكثرهم شكاكين لا ادريين . واللا أدرية ((agnosticism)) هو مصطلح ابتكره توماس هاكسلي في القرن التاسع عشر الميلادي ليعبر عن الحالة الوسطية بين الالحاد الجزمي والايمان ، واللا أدري : هو الشخص الذي يعتقد أن لا شيء مؤكد بوجود او عدم وجود الله [1] .

من هذا يظهر أن المناسبة بين الالحاد في الله ولحد القبر هي كون الالحاد في الله اقبارا للفطرة البشرية ودفنا للعقل ، حيث ان الانسان مفطور على الايمان بوجود الله ، والعقل حاكم باستحالة وجود هذا الكون دون خالق عليم حكيم خبير قدير ، وكما قال تعالى : ((فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)))[2] .

الإلحاد هو موت حقيقي لإنسانية الانسان وليس مجازيا ، بخروجه عن الرتبة الانسانية للوجود ، وما تراه من ملاحدة انما هي كائنات اخرى ظلت متلبسة بالصورة البشرية فلا تغرك صورها . على ان كلامنا هذا عن الملحد المنكر بضرس قاطع ، المعاند المستكبر، وهم كما اشرنا شرذمة قليلون ، أما اكثرهم فهم شكاكون لا أدريون نرجو لهم الهداية .

الخلاصة ان للإلحاد معنيين هما المقصودان في بحثنا :

الاول : الالحاد بالمعنى الاعم وهو مطلق الانحراف عن الدين الحق .

الثاني : الالحاد بالمعنى الاخص وهو خصوص انكار وجود اله خالق جزما او تشكيكا ونسبة الكون الى الطبيعة .

---

(١) راجع : الموسوعة البريطانية ، مادة ((Agnosticism))

٢ ـ سورة الروم

٢- الربوبية ((Deism))

الرَّبُّ يطلق في اللغة على المالك والمدبر للأمور ، والربوبية هي الملكية والتدبير ، والتربية تعني التكفل بالرعاية وتنشئة الشيء حالا فحالا إلى حد التمام ، والرِّبِّيُّ والرَّبَّانِيُّ: المنسوب الى الرب أو العالم العارف بالله ،َقَالَ سِيبَوَيْهِ: زَادُوا أَلفاً وَنُونًا فِي الرَّبَّاني إذا أَرادوا تَخْصِيصًا بعِلْم الرَّبِّ دُونَ غَيْرِهِ ، كأَن مَعْنَاهُ: صاحِبُ عِلْمٍ بالرَّبِّ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ العُلوم[١] ، قال الله تعالى : ((وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)))[٢] وقال تعالى : ((مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)))[٣] .

هذا بحسب اللغة العربية والاستعمال القرآني ، اما الملاحدة فقد وجدناهم يستعملون كلمة الربوبية في معنى اخر وهو : الاعتقاد بوجود خالق للكون من دون تشخيص اسمه ومن دون الاعتقاد بنبوة او شريعة او معاد ، وتعرفها الموسوعة المختصرة للفلسفة : ((هو الاعتقاد بأن هناك الها وكائنا اسمى ، خيرا حكيما قد خلق العالم لكنه لم يعد يتدخل فيه))[٤] ، وفي قاموس ميريام وبستر : ((حركه أو نظام فكري يدعو الى الدين الطبيعي والتأكيد علي الأخلاق في القرن الثامن عشر ، ينكر تدخل الخالق مع قوانين الكون))[٥] ، وحسب موسوعة لالاند الفلسفية فأنه ((في الفرنسية ، احتفظ مفهوم تأليه طبيعي بمعنى اصلي ازدرائي غالبا ، فقد استعمله الارثوذكسيون كمصطلح تحقيري يقال على اولئك الذين يكتفون بالإيمان بالله دون التسليم بالمذاهب وبالعبادات الخاصة بدين معين))[٦] .

---

(١) راجع : لسان العرب ، مادة ((ربب)) ، ج١ ص٣٩٩
- مفردات الفاظ القرآن ، مادة ((رب)) ، ج١ ص٣٧٥

٢ - سورة آل عمران

٣ - سورة آل عمران

٤ - الموسوعة الفلسفية المختصرة ، جوناثان رى ، مادة ((مذهب المؤلهة الربوبية)) ، ص٣١٧

٥ - قاموس مريام وبستر ، مادة ((Deism))

٦ - موسوعة لالاند الفلسفية ، مادة ((Deism)) ، ص٢٥٨

فالربوبية - بحسب هذه القواميس الغربية - هي الاعتقاد بوجود كائن اسمى خلق الكون واعتزل التدخل في شؤونه . وتؤرخ لها دائرة المعارف البريطانية فتقول : ((الربوبية ، وهو موقف ديني غير تقليدي وجد تعبيرا بين مجموعة من الكتاب الإنجليز بدءا من إدوارد هيربرت في النصف الأول من القرن السابع عشر وينتهي مع هنري سانت جون ، أول فيسكونت بولينجبروك ، في الوسط من القرن الثامن عشر . بعد ذلك ألهم هؤلاء الكتاب موقفا دينيا مماثلا في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية الاستعمارية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . بشكل عام ، تشير الربوبية إلى ما يمكن تسميته بالدين الطبيعي ، أو قبول نوع معين من المعرفة الدينية المولودة في كل شخص أو التي يمكن اكتسابها عن طريق استخدام العقل ورفض المعرفة الدينية عند اكتسابها بالوحي أو تدريس كنيسة))[١] .

فالربوبي هو من يعتقد بوجود إله خالق للكون ، ولكن لا يعتقد ان هذا الخالق هو الله سبحانه ، او اي اله من آلهة الاديان غير السماوية ، بل هو بحسب وصفهم ((كائن اسمى)) من كل ذلك ، قد اودع في الكون قوانين تسيره ، واودع في الانسان عقلا يميز فيه الصواب والخطأ ، ثم اعتزل التدخل في شؤون الكون والبشر فلا حاكمية له على خلقه. والربوبية بهذا المعنى هي نحو من الالحاد بحسب المعنى الاول العام الذي ذكرناه للإلحاد سابقا ، حيث انها انحراف عن الدين الحق وانكار لوجود الله تعالى ، واما بحسب المعنى الثاني الخاص للإلحاد وهو انكار وجود إله اصلا ونسبة الكون الى الطبيعة فأن الربوبية ليست الحادا والربوبي ليس ملحدا وانما هو شخص مازال يتمتع بشيء من العقل وسلامة الفطرة فلم يتجرع مسألة نسبة الكون العظيم الى الطبيعة العمياء والصدفة الهوجاء ، وهذه نقطة ايجابية له ، ولكنه في ذات الوقت شخص مهزوز ، ضعيف الارادة ، يخادع نفسه ، ولا يجرؤ على الاقرار بأن هذا الاله الخالق الذي يعتقد بوجوده انما هو الله العليم الخبير الحكيم القدير المتصف بكل صفات الكمال

---

[١] - الموسوعة البريطانية ، مادة ((Deism))

المطلق والمنزه عن كل نقص ، وانه لم يخلق هذا الكون باطلا وعبثا وانما لغاية ، وانه ارسل الانبياء والمرسلين بشرائع الدين لتحقيق هذه الغاية ، وانه لابد راد الناس الى معاد بعد الموت ليروا اعمالهم . الربوبي من هذه الناحية شخص متأرجح ، ويظن نفسه انه افضل حالا من الملحد المنكر لوجود خالق للكون بقيامه بحركة مسك العصا من الوسط ، فلا هو ملحد منكر لوجود خالق للكون لأن هذا الأمر محض إلغاء لعقله وطمس لفطرته ، ولا هو مؤمن بالله ورسله واليوم الاخر لأن هذا الأمر تترتب عليه مسؤوليات شرعية هو يريد الهروب منها ، او هو تكتنفه شبهات لم يستطع عقله القاصر ان يردها ، فيقنع نفسه ويخادعها بأن الحل الاسلم هو البقاء في منتصف الطريق ، في المنطقة الوسطى بين ظلام الالحاد ونور الايمان ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون . فالحق ان الربوبي من حيث الحالة النفسية اسوأ حالا من الملحد المنكر لوجود خالق للكون ، لأن الملحد الجاحد كائن قد اقبر عقله ودفن انسانيته فأستراح في غياهب ظلمته البهيمية ، أما الربوبي فهو اطلال انسان معذب بما تبقى عنده من ذرة عقل وفطرة انسانية ، الربوبية هي انين انسان معذب ، محبط ، يسعى عبثا ان يوهم نفسه بالسعادة وقد قال الله تعالى : ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)))[١] .

الخلاصة ان الربوبية هي نحو من الالحاد بحسب المعنى الاول للإلحاد ، وهي حالة وسطى بين الالحاد والايمان الحق بحسب المعنى الثاني له .

[١] - سورة طه

٣- اللا دينية ((Irreligious))

مصطلح يطلق - بحسب تتبعنا - على الاعتقاد بوجود الله وحاكميته للكون لكن مع عدم التزام بدين معين ، والشخص اللاديني هو شخص يؤمن بوجود الله تعالى ويعتقد بحاكميته و تدبيره ، أي تدخله في إدارة شؤون الكون ، كما هو يعتقد بالمعاد ، ولكنه يكذب النبوات والاديان ، فهو يرى ان النبوة هي افتراء على الله تعالى وان الاديان هي صناعة بشرية ، وأن الدين إنما هو حالة روحية وعلاقة خاصة بين العبد وربه ، فهو يتعبد الله بطريقته الخاصة التي يبتدعها هو بحسب ما يلائم مزاجه الخاص . وبهذا يفترق اللا ديني عن الربوبي الذي يؤمن بوجود ((كائن اسمى)) غير مسمى قد خلق الكون ثم اعتزل ، وإن كان يشترك معه في تكذيب النبوات والاديان . فالربوبية تنكر حاكمية الله التكوينية والتشريعية ، بينما اللادينية تسمح بحاكمية الله التكوينية وترفض حاكميته التشريعية .

واللادينية بهذا المعنى هي عبارة عن الحاد مبطن حين لا تقوى النفس على مجاهرة الله بالإنكار والتمرد عليه ، فتتوجه الى الحلقة الواصلة بين الله والعباد وهي النبوة فتنكرها ، متخذة من ذلك القناع ذريعة للتحلل من الدين وما يترتب عليه من مسؤوليات والتزامات ، ومتخلصة - بحسب وهمها - من شبهات حول الاديان لم تستطع ان تستوعبها . والحق ان ذلك قناع مفضوح لا يستر صاحبه ولا يخلصه من ضرورة الاقرار بأنبياء الله والدين الحق ، كما قال الله تعالى : ((رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)))[١] .

واحيانا كثيرة يطلق مصطلح اللا دينية بشكل عام ليشمل كل من الالحاد الجازم واللا أدرية والربوبية ، حيث يشترك الجميع في عدم الايمان بالنبوة والاديان ، كما يشير الى ذلك قاموس ميريام وبستر عندما يعرف اللادينية بأنها : ((إهمال الدين : غياب المشاعر الدينية ، أو العقائد

[١] - سورة النساء

))[1] واحيانا اخرى - خاصة في الاعلام - يطلق ويراد به الالحاد بالخصوص ، فبدل ان يقال عن شخص انه ملحد يقال عنه انه لاديني وذلك بهدف التضليل الاعلامي والتخفيف من وقع كلمة ((الحاد)) على الاسماع .

٤ ـ الارتداد

الرد : في الاصل هو الرجْع ، يقال رددت الشيء اي ارجعته ، والردة هي العودة الى الحالة السابقة ، والارتداد هو الرجوع الى الحال او الوضع السابق قبل حصول التحول والانتقال ، قال تعالى : ((قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)))[2] اي رجعا في الطريق نفسه الذي جاءا منه ، والارتداد في الدين هو الكفر والرجوع عن الاسلام [3] .

والارتداد قسمان : ارتداد عن فطرة وارتداد عن ملة ، فالارتداد عن الفطرة هو ان يكون الشخص مسلما بحسب فطرة الله التي فطر الناس عليها ، اي غير مسبوق بحالة كفر ، ثم يكفر بعد ذلك ويخرج عن الاسلام ، وارتداده عن الاسلام هو بمعنى الرجوع الى حالة المادة الميتة قبل ان يخلقه الله انسانا ويفطره على الاسلام ، فهو تسافل عن الرتبة الانسانية ، قال الله تعالى : ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)))[4] ، أما الارتداد عن ملة فهو ان يكون الشخص مسبوقا بحالة كفر فينتحل الاسلام ويتخذه ملة ثم يكفر ويرجع الى حالة الكفر السابقة .

---

[1] ـ قاموس ميريام وبستر ، مادة ((irreligious))
[2] ـ سورة الكهف
([3]) راجع : لسان العرب ، مادة ((ردد)) ، ج٣ ص١٧٢
ـ مفردات الفاظ القرآن ، مادة ((الرد)) ، ج١ ص٣٩٣
[4] ـ سورة البقرة

والارتداد بكلا قسميه جريمة عظمى يرتكبها المرتد في حق نفسه ، اذ لا يوجد ابشع من تنازل الانسان عن رتبته الوجودية وانحطاطه الى مرتبة البهيمة او الحجارة ، تلك الرتبة التي كرمه الله بها وفضله بها على كثير من خلقه كما قال تعالى : ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)))[١] ، كما هو سرطان اجتماعي ينخر جسد المجتمع المسلم ويقذف به في مهاوى الرذيلة ، ولأجل ذلك جاءت احكام الاسلام المترتبة على الارتداد مناسبة لعظم هذه الجريمة وابعادها النفسية والاجتماعية الخطيرة فقال تعالى : ((وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)))[٢] فلا ينظر الاسلام للارتداد على أنه مجرد حرية فكرية كما يخدع الملاحدة انفسهم .

وهذه نبذة من احكام المرتد في الفقه الاسلامي :

((مسألة ٩٦٧: المرتدّ وهو من خرج عن الإسلام واختار الكفر على قسمين: فطريّ وملّيّ، والفطريّ من ولد على إسلام أحد أبويه أو كليها ثُمَّ كفر، وفي اعتبار إسلامه بعد التمييز قبل الكفر وجهان، والصحيح اعتباره. وحكم الفطريّ أنّه يقتل في الحال، وتبين منه زوجته بمجرّد ارتداده وينفسخ نكاحها بغير طلاق، وتعتدّ عدّة الوفاة ـ على ما تقدّم ـ ثُمَّ تتزوّج إن شاءت، وتُقسّم أمواله التي كانت له حين ارتداده بين ورثته بعد أداء ديونه كالميّت ولا ينتظر موته، ولا تفيد توبته ورجوعه إلى الإسلام في سقوط الأحكام المذكورة مطلقاً على المشهور بين الفقهاء (رضوان الله تعالى عليهم)، ولكنّه محلّ إشكال فلا يترك مراعاة مقتضى الاحتياط فيه، نعم لا إشكال في عدم وجوب استتابته.

وأمّا بالنسبة إلى ما عدا الأحكام الثلاثة المذكورات فالصحيح قبول توبته باطناً وظاهراً، فيطهر بدنه وتصحّ عباداته ويجوز تزويجه من المسلمة، بل له تجديد العقد على زوجته السابقة حتّى قبل خروجها من العدّة على القول

---

[١] - سورة الاسراء

[٢] - سورة البقرة

ببينونتها عنه بمجرّد الارتداد، كما أنّه يملك الأموال الجديدة بأسبابه الاختياريّة كالتجارة والحيازة والقهريّة كالإرث ولو قبل توبته.

وأمّا المرتدّ الملّيّ - وهو من يقابل الفطريّ - فحكمه أنّه يستتاب، فإن تاب وإلّا قتل، وانفسخ نكاح زوجته إذا كان الارتداد قبل الدخول أو كانت يائسة أو صغيرة ولم تكن عليها عدّة، وأمّا إذا كان الارتداد بعد الدخول وكانت المرأة في سنّ من تحيض وجب عليها أن تعتدّ عدّة الطلاق من حين الارتداد، فإن رجع عن ارتداده إلى الإسلام قبل انقضاء العدّة بقي الزواج على حاله، وإلّا انكشف أنّها قد بانت عنه عند الارتداد. ولا تقسّم أموال المرتدّ الملّيّ إلّا بعد موته بالقتل أو غيره، وإذا تاب ثُمَّ ارتدّ ففي وجوب قتله من دون استتابة في الثالثة أو الرابعة إشكال فلا يترك مراعاة مقتضى الاحتياط.

هذا إذا كان المرتدّ رجلاً، وأمّا لو كان امرأة فلا تقتل ولا تنتقل أموالها عنها إلى الورثة إلّا بالموت، وينفسخ نكاحها بمجرّد الارتداد بدون اعتداد مع عدم الدخول أو كونها صغيرة أو يائسة وإلّا توقّف الانفساخ على انقضاء العدّة وهي بمقدار عدّة الطلاق كما مرّ في المسألة (٥٦٣).

وتحبس المرتدّة ويضيّق عليها وتضرب على الصلاة حتّى تتوب فإن تابت قبلت توبتها، ولا فرق في ذلك بين أن تكون مرتدّة عن ملّة أو عن فطرة.

مسألة ٩٦٨: يشترط في ترتيب الأثر على الارتداد البلوغ وكمال العقل والقصد والاختيار، فلو أكره على الارتداد فارتدّ كان لغواً، وكذا إذا كان غافلاً أو ساهياً، أو هازلاً أو سبق لسانه، أو كان صادراً عن الغضب الذي لا يملك معه نفسه ويخرج به عن الاختيار، أو كان عن جهل بالمعنى))[١] .

[١] - منهاج الصالحين ، السيد السيستاني ، ج٣ ، كتاب الميراث ، ص٣١٧-٣١٨

تأريخ الإلحاد

خلصنا في التوطئة الى ان للإلحاد معنيين الاول هو مطلق الانحراف عن الدين الحق والثاني هو خصوص انكار وجود اله خالق ونسبة الكون الى المادة على نحو الجزم او التشكيك ، وكذلك خلصنا الى ان الربوبية هي نحو من الالحاد ، وان اللادينية هي الحاد مبطن ، ولأجل ذلك فان ما سنعرضه من نماذج الالحاد سيشمل هذه المعاني جميعا . كما نود الفات النظر الى ان ما سنعرضه من النماذج يشمل ما كان تيارا شعبيا للإلحاد او مذهبا فكريا او مدرسة فلسفية او غير ذلك من العناوين والمحطات التاريخية التي نعبر عنها جميعا بكلمة ((نماذج)) ، ونحن لا نريد بذلك تكثير الملاحدة وتضخيم حجمهم فإننا لو اقتصرنا على الالحاد بمعنى خصوص انكار اله خالق للكون على نحو الجزم ، فلن تجد له الا شرذمة قليلة ونموذجا واحدا او اثنين في التأريخ كله ، وانما نحن نريد بذلك ان نبحث في جذور الالحاد وظروفه الزمانية والمكانية والاجتماعية والسياسية ، ونستعرض مقالاته ومظاهره لتشخيص حجمه التاريخي الحقيقي وكشف دوافعه واقنعته وأسباب ظهوره وانتشاره الآن.

١ـ الفلسفة الذرية

ظهرت المدرسة الذرية كتأمل فلسفي ساذج حول طبيعة الكون في القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا في اليونان ، وكان لوقيبوس هو أول من قال بالنظرية الذرية في طبيعة العالم ، ولكن ديموقريطس هو الذي احكم صياغتها وتفسيراتها وحاول حل مشكلاتها .

قامت النظرية الذرية على افتراض فلسفي هو استحالة ان يوجد شيء من لا شيء أو ان يصير الى لا شيء لذلك ذهبت الى القول بقدم العالم ، وهو ما يعبر عنه بلغة العصر بقانون ازلية المادة ، وهو مبدأ مرادف لإنكار خلق الكون .

والكون يتألف في نظر الذريين من الذرات وهي عندهم جسيمات مادية لامتناهية من حيث عددها وحجمها وتنوع اشكالها ، تتحرك بسرعة وتتجمع لتشكل كافة ما في العالم من الموجودات الحية وغير الحية ، وعلى هذا الاساس فسروا كل ما هو موجود في الكون تفسيرا ساذجا يبطله حتى الحس البسيط ، فاللون الابيض عندهم ما هو الا نعومة الذرات التي تشكل منها الجسم الابيض ، والرائحة اللاذعة ماهي الا خشونة الذرات التي انبعثت من الجسم لتصل الى الانف ، والصور المرئية ماهي الا ذرات انبعثت من الجسم المرئي ووصلت الى العين[١] .

انا لا نستطيع الجزم بأن الذريين اليونانيين كانوا ملحدين بمعنى انكار وجود الاله الخالق للكون وان كانت نظريتهم تنسجم مع ذلك ، ولكن بلا اشكال هم ملحدون بحسب بعض المعاني الاخرى التي ذكرناها للإلحاد ، فقد شاع في عصرهم القول بقدم العالم والخالق، أي القول بأزلية المادة وأزلية الإله، وهذا لا يعني الإلحاد بمعنى انكار وجود الله تعالى جزما أو تشكيكا، بل يعني اشراك المادة كعلة مستقلة بذاتها مع الله تعالى في الخلق. كما اننا، مع التسامح، يمكننا ان نعتبر النظرية الذرية هي الجذر الفلسفي

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((الذرية)) ، ص١٥٢
- معجم الفلاسفة ، اعداد جورج طرابيشي ، مادة ((ديموقريطس)) ، ص٣٠٧

للإلحاد ، وأقدم نموذج فلسفي ثابت تاريخيا للإلحاد، وإلا فلم يثبت تحقيقا كون الذريين كانوا ملاحدة بمعنى انكار وجود الله جزما أو شكا. وهذه النظرية - كما رأينا - تأمل فلسفي ساذج مثير للسخرية ، يبطله الحس البسيط فضلا عن التجربة والعلم الحديث ، لذا فهي لم تلق رواجا فلسفيا ولا شعبيا حتى في وقتها ، فقد فندها ارسطو فلسفيا وبرهن على افتقار الكون الى خالق منزه عن المادة ، كما ان المجتمع اليوناني آنذاك كان يعتقد بالآلهة المتصرفة بالعالم ، إلا ان الافتراض الفلسفي الذي قامت عليه وهو مادية الوجود بالمطلق وازلية المادة ، هو المبدأ الفلسفي الذي قامت عليه كل نماذج الالحاد فيما بعد وحاولت اثباته عبثا ، فلم يتمكن الملاحدة الجدد باستخدام العلوم الحديثة من اثبات مادية كل ما في الوجود حتى الروح والعقل ، كما عجزوا عن اثبات ازلية المادة واستغنائها في وجودها عن إله خالق غير مادي ، ذلك لأن هذا الافتراض هو خلاف الادراك الفطري السليم ، فالكرسي لا يصنع نفسه من مادته بنفسه بل هو مفتقر الى علة فاعلية هي غيره. أزلية المادة قصور فلسفي عظيم، ومقتله في كون ((المادة متغيرة وهذا برهان حدوثها))، فالتغير والحركة ثابتة للمادة جزما، فأما أن يكون التغير والحركة هو عرض، أي حالة طارئة على ذات المادة خارجة عن ذاتها وكنهها وإنما المادة ثابتة في ذاتها، وأما أن يكون التغير والحركة هو جوهر، أي صميم ذات وكنه المادة فهي متغيرة متحركة بذاتها وتغيرها عين ذاتها، وعلى كلا التقديرين فإن كانت الحركة والتغير عرضا على المادة فهي مفتقرة الى محرك من خارج ذاتها، وافتقار المادة الى عرض من خارجها وموجد من خارجها لهذا العرض ومحدث له في المادة هو برهان حدوث المادة، فهي محل للأعراض ومفتقرة بالذات وكل مفتقر بالذات هو معلول الى علة أكمل وأقوى منه تجبر فقره ونقصه. وإن كان التغير والحركة جوهرية في المادة فهي تكون عين النقص والافتقار لأن التغير والحركة هي انتقال من عدم الى وجود، من وضع كان معدوما الى وضع جديد موجود فعلا، وكل منتقل من عدم الى وجود هو حادث معلول مفتقر الى علة توجب خروجه من حالة قديمة الى حالة حادثة كانت معدومة. وقد قالوا إن هذه العلة هي قوانين المادة نفسها فقلنا: إن قوانين المادة عمياء، فما الذي حتم عليها العمل كفريق

واحد منتظم؟ إن قوانين المادة لم تنتج جهاز الحاسوب بذاتها وهي تعمل منذ الأزل، بل انتجته عقول معاصرة واعية بقصد وهدف، فالمادة العمياء بقوانينها مفتقرة الى عقل مدبر لتوجيهها واخراجها من وضع لآخر. فأصل مادة الكون مفتقرة الى عقل مدبر خارج عن ذاتها غير ملتبس بها، ولو كان عقلا ملتبسا بالمادة كالإنسان لجرت عليه حالات المادة من الفناء والحدوث ولكان مفتقرا كالمادة العمياء الى عقل مدبر خارج عن ذاته، وهذا العقل المدبر لمادة الكون المجرد عن المادة أزلي، إذ لو كان حادثا لأفتقر الى محدث، وما دامت المادة عمياء بالذات ومفتقرة بالذات بلحاظ أن الحركة والتغير هو عين ذاتها فهي حادثة بالذات وليست أزلية.

٢ـ الفلسفة الابيقورية

مدرسة فلسفية ظهرت في اليونان حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ، حيث دعا ابيقور الناس الى حياة مادية قائمة على عدم المبالاة بالدين والقيم الاخلاقية ، فكان يقول للناس استمتعوا بملذاتكم كيفما شئتم فإن الآلهة مشغولة عنكم في شؤونها.

وتعتمد الابيقورية على اساسين :

١ـ اساس لاهوتي : حيث تبنى ابيقور النظرية الذرية في طبيعة الكون ، ولم يكن ابيقور نفسه ملحدا بمعنى انكار وجود اله للكون ، ولكن الاله بنظره قد اعتزل التحكم في الكون والتدخل في شؤون البشر .

٢ـ اساس اخلاقي : حيث ذهب ابيقور الى تفسير الاخلاق باللذة والالم ، فالخير هو اللذة والشر هو الالم ، فلا قيمة لفضيلة اخلاقية في حد ذاتها وانما الفضيلة هي كل ما يحقق لنا لذة ويدفع عنا الما ، واللذة وحدها هي الخير وهي خير على الدوام[١] .

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((ابيقور)) ، ص١٤

هذه المدرسة لم تجتذب آنذاك - والى الان - إلا فئة قليلة من الناس ، وكان الابيقوريون موضع نفور عام ، حيث ان المجتمع ذلك العصر وفي كل عصر يعتقد بوجود اله خالق ويعتقد بحاكميته ، كما يعتقد بفضائل الاخلاق كقيم روحية سامية غير خاضعة لمقياس اللذة الخاصة ، على ان الاخلاق الابيقورية كانت هي الجذر الاخلاقي لجميع النزعات الالحادية فيما بعد ، فجميع مذاهب الملاحدة في الأخلاق لا تقر - نظريا - بفضائل الاخلاق كقيم روحية عامة متعالية على المادة وغير خاضعة لحسابات المنفعة الشخصية، وكلها تدعو الى الانحطاط الأخلاقي ولكن بعناوين خادعة مختلفة، كالدعوة والشرعنة للزنى والدعارة والمثلية اليوم بعنوان الحرية الشخصية، وان كان ((بعض)) الملاحدة جريا على فطرتهم ملتزمون - عمليا - ببعض مكارم الاخلاق.

٣- مذهب الشكية

هو مذهب ينظر الى امكانيات المعرفة على انها محدودة ، ويذهب في اكثر صوره تطرفا الى القول باستحالة الحصول على معرفة يقينية في حقيقة من الحقائق .

ظهر مذهب الشك كفلسفة في اليونان حوالي القرن الرابع قبل الميلاد كتعبير عن السخط على الفوضى العقلية الناتجة عن صراع المذاهب الفلسفية الجزمية انذاك ، فكان رائد فلسفة الشك بيرون يذهب الى ان الراحة العقلية لا تتم الا بترك البحث عن الحقيقة . ويندر ان يتبنى العقلاء مذهب الشك كفلسفة عامة في الحياة فهو علامة على التخبط الذهني ، كما هو ينقض نفسه بنفسه ، فالقائل بمبدأ ((استحالة تحصيل معرفة يقينية))

ان كان شاكا في قوله هذا ثبت امكان تحصيل اليقين ، وان كان متيقنا جازما من قوله هذا ثبت انه ليس شاكا شكا مطلقا[١] .

مذهب الشك هو مرض نفسي لمن يتخذه كفلسفة معرفية ونظرية في عالم الوجود ، لأن الانسان مفطور على طلب اليقين لتحقيق الاطمئنان الروحي ، وهو مبدأ علمي لمن يجعله طريقا للوصول الى الحقيقة ، فما ذهب اليه بيرون من ان الراحة العقلية لا تتم الا بترك البحث عن الحقيقة ما هو الا هذيان مخالف للفطرة السليمة ، ولذلك لم يجد مذهب الشك المطلق رواجا في عصره في الوسط الشعبي ، اما في الوسط الفلسفي فقد فنده ارسطو بوضع قواعد المنطق الموصلة الى المعرفة اليقينية كما فند النظرية الذرية في طبيعة العالم والاخلاق الابيقورية[٢] . ولكن مع ذلك فقد ظل مذهب الشك يظهر بين آونة واخرى مرتديا قناعا فلسفيا مختلفا ، كما في نظرية نسبية المعرفة عند أمانويل كانت ، ونظرية خيالية الادراك عند ديفيد هيوم[٣] . وبشكل عام نستطيع ان نقول ان مذهب الشك اليوناني هو الجذر النفسي لجميع نزعات الالحاد فيما بعد ، فكما قلنا في التوطئة فان اكثر الملاحدة هم شكاكون لا ادريون ويندر جدا أن تجد ملحدا جازما.

يهرج ملاحدة العصر بأنه لا توجد حقيقة واقعية مطلقة ، إنما الحقيقة نسبية ، فكل ما يدركه الشخص هو حق بالنسبة اليه فقط ويستحيل ادراك الواقع. هذه مقولة النسبية الذاتية وهي تنسف نفسها بنفسها. فمقولة ((لا توجد حقيقة مطلقة)) هي معرفة تصديقية كلية، أي قضية مركبة مشتملة على حكم سلبي كلي عام ، فهل هي حقيقة نسبية أم مطلقة ؟ فإن كانت حقيقة نسبية، أي هي حق بالنسبة لمدركها فقط، فلا يحق لمدعيها أن يجعلها مبدأ عاما يريد من كل البشر أن يؤمنوا به، وإن كانت حقيقة واقعية مطلقة ثابتة في حد نفسها، ولها واقع موضوعي مستقل بقطع النظر عن شخص مدركها؛ فقد ثبت بذلك كذبها بزعم أنه لا توجد حقيقة واقعية مطلقة، وثبت بذلك إمكان وجود حقائق مطلقة. والحق أن تسمية هذا

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((مذهب الشك)) ، ص٣٠٦

(٢) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((ارسطو)) ، ص٣٢

(٣) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((هيوم)) ، ص٤٠١

المذهب في المعرفة باسم (النسبية الذاتية) هو من باب الخداع اللفظي والتزييف الفكري، فهي واقعا عبارة عن شكية لا أدرية بثوب جديد، لأن قولهم إن هذا ندركه وربما كان باطلا هو عين الشك وليس حقيقة، ولهذا نقول إن كل نظرية تطرح لهدم المذهب العقلي إنما تهدم نفسها بنفسها.

فالملاحدة واقعا يتبعون المنطق السفسطائي - منطق المغالطات - ومذهب الشكية اللا أدرية اللذين ظهرا في اليونان حوالي ٤٠٠ سنة قبل الميلاد ، الأمر الذي دعى ارسطو الى تقنين قواعد منطق البرهان العقلي. فالمنطق العقلي هو قواعد للتفكير البشري السليم التي يدركها كل عاقل سليم العقل والفطرة، وليست هي من ابتكار ارسطو بل ارسطو قننها كتابيا ردا على موجة السفسطة والشكية التي شاعت في عصره. ولذلك نحن نقول إن الفلسفة الذرية والابيقورية والشكية في ايام الامبراطورية اليونانية هي جذر الإلحاد في كل عصر.

٤- جماعة الدهرية

الدهر في لغة العرب بمعنى الامد والزمان الطويل[١] ، والدهرية اسم يطلق على جماعة قيل أنها كانت موجودة في بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال انهم هم الذين أشير إليهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : ((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)))[٢] ، وهم يقولون ببقاء الدهر، وبنكران البعث والآخرة ، وكذلك ينكرون وجود الخالق والرسل - على بعض الآراء - وينسبون كل شيء إلى فعل الدهر أي عوامل الطبيعة ، ويعتقدون بتأثيرها في حياة الإنسان وفي العالم ، ولهذا أضافوا إلى الدهر

---

(١) راجع : لسان العرب ، مادة ((دهر)) ، ج٤ ص٢٩٢

٢ - سورة الجاثية

بعض الألفاظ والنعوت التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا: يد الدهر وريب الدهر[١] .

ونحن لا يمكننا الجزم بأن جماعة الدهرية كانوا ملاحدة بمعنى انكار وجود الله ، ولكن بلا اشكال هم كانوا ينكرون حاكمية الله وتصرفه كما ينكرون الحياة بعد الموت ، وعلى فرض انهم كانوا ينكرون وجود الاله الخالق والوجود الخلقي للكون فأن الراجح انهم كانوا شرذمة قليلة من سفهاء كفار العرب لا يؤبه بهم وبقولهم في المجتمع العربي آنذاك ، لان مسألة اصل وجود الله هي قضية فطرية راسخة جدا فيكون نكرانها هو اخر ما تنسلخ عنه الفطرة البشرية ، ولأن من المقطوع به تاريخيا ان كفار الجاهلية كانوا يعتقدون بوجود إله خالق للكون كما قال تعالى : ((وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)))[٢] ولكنهم كانوا يشركون بربوبية الله ويتخذون الاصنام اربابا يعبدونها للاعتقاد بتأثيرها في حياتهم ، وقد حكى القرآن الكريم تبريرهم لذلك فقال تعالى : ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)))[٣] . ولأجل ذلك لم يأبه القرآن كثيرا لمسألة اثبات اصل وجود الله ، بل كرس اهتمامه للدعوة الى التوحيد ونفي الاشراك واثبات حاكمية الله واستقلاله بالتدبير والدعوة الى مكارم الاخلاق وصالح الاعمال .

---

(١) راجع : المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، ج١١ ص١٤٨

٢ - سورة الزخرف

٣ - سورة الزمر

٥- تيار الزندقة

كلمة ((الزندقة)) ليست عربية وقد اختلف في اصلها ، فقيل انها فارسية معربة من كلمة ((زنده)) وتعني بالفارسية الحياة والدهر ، والنسبة اليها ((زندگي)) اي دهري ، فتكون الزندقة مرادف ((الدهرية)) في العربية اي القول ببقاء الدهر ونكران اليوم الاخر ، وهو ما يرادف القول بأزلية العالم واصالة المادة عند المدرسة الذرية الاغريقية . وقيل ان اصلها من كلمة ((زند)) وتعني ((التفسير)) في اللغة الفارسية القديمة ويشار بها الى كتاب ماني الحكيم الفارسي الذي ظهر بعد نبوة النبي عيسى عليه السلام وقبيل مجيء الاسلام ، حيث زعم ان كتابه إنما هو تفسير لكتاب ((بستا)) لزرادشت الحكيم الذي يقال انه نبي الفرس حوالي الف سنة قبل الميلاد ، وقد وضع ماني في كتابه هذا اصول العقيدة الثنوية وهي الاعتقاد بوجود اصلين للكون اله النور واله الظلام ، اله النور يخلق الخير واله الظلمة يخلق الشر . وعلى هذا المعنى فالزندقة : هي خصوص القول بالثنوية اي بوجود اصلين للكون ، ثم ألحق بها كل اعتقاد ينفي وجود الله وينفي حدوث العالم وينفي النبوة والرسالة واليوم الاخر[١] .

وبقطع النظر عن تحديد معنى الكلمة واصلها فان قصدنا فعلا من البحث هو تلك الحركة الالحادية التي برزت في المجتمع الاسلامي حوالي القرن الثاني الهجري ، ايام سلاطين بني العباس ، مستهدفة التشكيك في عقائد الاسلام ، والتي يؤرخ المسعودي لظهورها من خلال وصفه لعصر المهدي السلطان العباسي الثالث فيقول : ((وأمعن في قتل الملحدين ، والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه ، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ؛ لما انتشر من كتب ماني وابن دَيْصَان ، ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنفه في ذلك ابن أبي العوجاء ، وحماد عَجْرَدٍ ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن

---

(١) راجع : لسان العرب ، مادة ((زندق)) ، ج١٠ ص١٤٧
- تاج العروس ، الزبيدي ، مادة ((زندق)) ج٢٥ ص٤١٨
- مروج الذهب ، المسعودي ، ج١ ص١٠٨
- الملل والنحل ، الشهرستاني ، مادة ((المانوية)) ، ج١ ص٢٤٣

إياس من تأييد المذاهب المانية والدَّيْصَانية ، والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس))[1] ، وقد كان ابرز من مثل هذه النزعة الالحادية في العصر العباسي هم صالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن ابي العوجاء وابن الراوندي[2] ، حيث لم يكتفوا بالاحتفاظ بآرائهم الفاسدة لأنفسهم ، بل جعلوا التشكيك والتهديم لعقائد الاسلام رسالة يبشرون بها كما يفعل الملاحدة الجدد اليوم، فأخذوا يجوبون البلدان الاسلامية ويثقفون الناس على ترك الدين الحق ، كما كتبوا كتبا بثوا فيها آراءهم الفاسدة[3] ، كما قيل عن صالح بن عبد القدوس : ((وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن حال اليقظان كحال النائم؛ وله كتاب سماه كتاب الشكوك، قال فيه: كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان!))[4] بل عمدوا الى الدس في التراث الروائي الاسلامي بما يخدم توجهاتهم الالحادية ، كما قيل عن عبد الكريم بن ابي العوجاء من انه اقر بوضع اربعة الاف حديث مكذوب لما استيقن القتل[5] .

وقد كتب الكثير من العرب والمستشرقين قديما وحديثا حول ظاهرة الزندقة واسبابها واصحابها ، وأغلب الكتابات جاءت بين افراط وتفريط لأن الكاتب اما مستشرق قرأ التأريخ الاسلامي قراءة سطحية او قومي متعصب للقومية العربية على الفارسية ، او طائفي متعصب لمذهب السلطة الحاكمة ، ونحن لا يهمنا هنا ذكر الآراء والمصادر لأصحاب تلك الاتجاهات الإستشراقية والقومية والطائفية ومناقشة اقوالهم والرد عليها ، انما يهمنا ان نسلط الضوء على الزندقة كمحطة من محطات النزعة الالحادية في التأريخ البشري عموما ، ومعرفة بواعثها التي تشترك بها مع النزعات الالحادية السابقة واللاحقة .

---

[1] - مروج الذهب ، ج٢ ص١٧٣

([2]) راجع : الفهرست ، ابن النديم ، ص٤٧٣

([3]) راجع ترجمة ابن الراوندي : تأريخ الاسلام ، الذهبي ، ج٥ ص٢٤٥

[4] - تأريخ اداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ج٣ ص٨٧

([5]) راجع : تأريخ الطبري ، الطبري ، ج٤ ص٥٠٨

والذي نعتقد به ان بواعث هذه النزعة في المجتمع الاسلامي في تلك الفترة تنحصر فيما يلي :

١- استغلال الفرقة المانوية النفوذ السياسي للفرس في الدولة العباسية : حيث استعان العباسيون بجيش من المسلمين من القومية الفارسية للقضاء على دولة بني امية ، فكان مبدأ انطلاق ثورة العباسيين من خراسان بقيادة ابي مسلم الخرساني كما ذكر الطبري في احداث سنة ١٢٩ للهجرة[١] ، وقد كان الدافع للفرس لاحتضان الثورة العباسية هو تحقيق مبدأ العدالة الاسلامية الذي نص عليه القرآن الكريم فقال : ((يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)))[٢] وهو المبدأ الذي نقضه بنو امية وولاتهم بغطرستهم العروبية المنافية لمبادئ الاسلام المحمدي الاصيل الذي جاء رحمة للعالمين ، فعملوا على تأجيج الصراع الشعوبي القومي ما بين المسلمين العرب والفرس[٣] والبربر[٤] ، بل حتى ما بين القبائل العربية[٥] . ثم أنه بعد استقرار السلطة لبني العباس استعانوا بالكثير من الفرس في ادارة الدولة وتطويرها ، وذلك لما يمتلكونه من خبرة كبيرة في هذا المجال حيث ان الحضارة الفارسية هي اقدم من الحضارة الاسلامية ، فصار لذلك شيء من النفوذ السياسي للفرس لبرهة من الزمن استغله الزنادقة من اتباع الديانة المانوية في الدعوة لعقيدتهم الثنوية ونشرها في المجتمع الاسلامي ، مستعملين اساليب السفسطة والتشكيك في عقائد الاسلام ، اما قبل العصر العباسي فلم تكن الاجواء السياسية والاعلامية مناسبة للترويج لعقيدتهم الفاسدة ، مع كونهم كانوا يعيشون في نواحي المجتمع الاسلامي منذ زمن ملوك بني امية كما ذكر ابن النديم في الفهرست وان خالدا القسري عامل بني امية في العراق كان يعتني بهم[٦]

---

(١) راجع : تأريخ الطبري ، ج٤ ص٣٠٦ ومابعدها
٢ - سورة الحجرات
(٣) راجع : تأريخ الطبري ، احداث سنة ١١٠ للهجرة ، ج٤ ص١٢٩
(٤) راجع : الكامل في التأريخ ، ابن الاثير ، احداث سنة ١١٧ للهجرة في افريقيا ، ج٢ ص٤١٢
(٥) راجع : المصدر السابق ، احداث سنة ١٠٩ للهجرة ، ج٢ ص٣٩٧
(٦) راجع : الفهرست ، ص٤٧١

، ولهذا فنحن لا نقول - كما قال البعض - ان من كان في الجيش العباسي وفي ادارة الدولة من الفرس كان زنديقا مانويا متسترا بالإسلام متحينا الفرصة للانقضاض على الاسلام ، بل نقول ان الزنادقة قد استغلوا الفضاء السياسي المفتوح للنيل من الاسلام ، واليوم نرى كيف استغل بقايا الماركسيين الشيوعيين الملاحدة الفضاء الديموقراطي المفتوح للتسلل الى مراكز السلطة ، والترويج للإلحاد خلف ستار الديموقراطية والحرية الفكرية.

٢- استغلال اليهود والنصارى النفوذ العلمي لعلمائهم في الدولة العباسية : فقد استعان سلاطين الدولة العباسية بالكثير من علماء اليهود والنصارى في مجالات الطب والفلك وترجمة الكتب ، لما يتمتعون به من خبرة واسعة في هذا المجال بسبب اتقانهم للغات العربية والسريانية واليونانية بحكم محيطهم العربي وديانتهم ، وقد اشتهر منهم عائلة بختيشوع فكانت هي المتولية لطبابة الاسرة العباسية [١] ، وعائلة حنين بن اسحاق الذي اشتهر بالطب والترجمة وقد ، اوكل اليه السلطان العباسي المأمون مهمة ترجمة الكتب اليونانية الى العربية [٢] وعينه رئيسا لبيت الحكمة خلفا ليحيى بن ماسويه[٣] .

هذا النفوذ العلمي لدى السلطة العباسية استغله احبار اليهود وقساوسة النصارى لترويج مالم يستطيعوا سابقا ترويجه ، من قصص الطعن في القرآن ورسول المسلمين والانبياء عليهم السلام ، وبالرغم من ان الرواة والمؤرخين المسلمين كانوا يتنزهون عن اثبات الطعون الصريحة في الاسلام والقرآن والرسول الاكرم في كتبهم الا انهم اثبتوا ما يطعن بصورة غير مباشرة ، وهو ما تم الالتفات اليه بعد ذلك واطلق عليه اسم ((الاسرائيليات)) ، معتمدين في اثباتهم لها في كتبهم على حديث مكذوب صححه البخاري هو :

---

(١) راجع ترجمة بختيشوع بن جورجس : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ابن ابي اصيبعة ، ص١٨٦ وما بعدها

(٢) راجع : المصدر السابق ، مادة ((حنين بن اسحاق)) ص ٢٥٧ وما بعدها

(٣) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((حنين بن اسحاق)) ، ص٢٧٥

((بَلِّغُوا عَنِّى وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[1] ، وهذا الحديث المكذوب هو رخصة دخول الاسرائيليات في التراث الاسلامي لتخريب الاسلام ، بل هو نفسه من الاسرائيليات المدسوسة للطعن بصورة غير مباشرة في الاسلام ، حيث ان مؤداه ان الرسول الاكرم لم يأمر ان يبلغ عنه غير القرآن ، اما بيان القرآن والاسلام فقد اوكله لبني اسرائيل !! ولعل الابيات المنسوبة للشاعر ابي العلاء المعري تشير الى حالة الاضطراب التي اصابت بعض النفوس نتيجة ذلك ، حيث يقول :

في اللاذقية فتنةٌ ... ما بين أحمَدَ والمسيحْ

هذا بناقوسٍ يدُقُّ ... وذا بمئذنةٍ يصيح

كل يعززُ دينَهُ ... ليت شعري ما الصحيح (٢)

وهذا ما نشهده اليوم ايضا من استغلال بعض اليهود والنصارى للفضاء السياسي والاعلامي المفتوح لإحياء شبهاتهم البالية ومطاعنهم القديمة ، التي يظن من لا اطلاع له على التاريخ أنها من مبتكرات العقل المعاصر .

٣- صدمة المجتمع الاسلامي بالثقافات الوافدة : فالمعروف انه لم تكن للعرب حضارة قبل الاسلام وانما كانت هناك ثقافة عربية و ليست حضارة ، و بالإسلام اصبح للعرب حضارة وثقافة اسلامية ولكنها لما تزل حضارة فتية اوائل القرن الثاني للهجرة ، ولما يزل المجتمع الاسلامي غير ناضج فكريا ، وعند وصول سلاطين بني العباس للحكم بثورة مسلحة اراد الحاكم العباسي ان يكسر الصورة النمطية السابقة لملوك بني امية كحكام عسكريين مستبدين منغلقين ، وذلك بأن يظهر كحاكم مدني متنور منفتح ، ولهذا فتح سلاطين بني العباس الابواب على مصارعها امام الثقافات الوافدة ، دون تمهيد ودون غربلة ودون ادراك لخصائص المجتمع ومقتضيات المرحلة ، كما لا نستبعد قيام الامبراطورية الرومانية التي

---

[1] - صحيح البخاري ، البخاري ، ج٣ الحديث رقم ٣٢٧٤

(٢) راجع : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، ص٣٧٧

ارعبها الاسلام ، بعولمة الثقافة الرومانية واليونانية كنحو من الغزو الثقافي لطمس الثقافة الاسلامية التي هددت وجودها .

هذا الفضاء الثقافي المفتوح في تلك المرحلة ، سمح بنفوذ مدارس الالحاد اليونانية الذرية والشكية والابيقورية ، ومذهب البراهما الهندي القائل بقدرة العقل على الاهتداء لجميع المعارف الالهية دون الحاجة الى الوحي والنبوة ، مما احدث صدمة في المجتمع الاسلامي غير الناضج فكريا ، ادت الى نزوع البعض من اصحاب الذهنيات البسيطة نحو الالحاد بمعناه العام . ولعل هذا الخبر الذي ينقله المسعودي عن سيرة ابي جعفر الدوانيقي السلطان العباسي الثاني يشير الى ما ذكرناه في هذه النقطة والنقطتين السابقتين ، حيث يقول : ((وكان أول خليفة قَرَّبَ المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وكان معه نُوبَخْتُ المجوسيًّ المنجم، وأسلم على يديه، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزاري المنجم، صاحب القصيدة في النجوم، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الإسطرلابي المنجم . وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، منها: كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند، وترجمت له كتُبُ أرسطاطاليس، من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس، وكتاب الأرتماطيقي، وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، وأُخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلقوا إلى علمها، وفي أيامه وضع محمد بن إسحاق كتاب المغازي، والسير ، وأخبار المبتدأ ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مُصَنَّفة، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وصرفهم في مهماته، وقَدَّمهم على العرب ، فامتثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده، فسقطت وبادت العرب، وزال بأسها، وذهبت مراتبها، وأفضَتِ الخلافة إليه، وقد نظر في العلم، وقرأ المذاهب، وارتاض في الآراء، ووقف على النِّحَل، وكتب الحديث، فكثرت في أيامه روايات الناس، واتسعت عليهم علومهم))[١] .

[١] ـ مروج الذهب ، ج٢ ص١٧٢

وما أشبه اليوم بالأمس ، حيث يظهر الجيل الجديد من زعماء الدول الاسلامية كامل الانصياع لمتطلبات عولمة الثقافة الغربية ، فيفتح ابواب الدولة على مصارعها لكل ما هب ودب ، دون نظر في العواقب أو تمهيد أو غربلة أو رقيب أو حسيب ، مما تسبب في صدمة ثقافية لم تستطع العقول غير الناضجة استيعابها .

٤- الانحطاط الاخلاقي للسلاطين التي تحكم باسم الدين : عندما يكون السلطان الذي يزعم الخلافة عن رسول الله فاسقا متهتكا مستحلا للخمر والرقص والغناء والقمار ، مسرفا في ملذات الدنيا من الجنان والقصور والجواري والاطعمة والاشربة ، لاهيا في ثراء فاحش يبدد اموال بيت مال المسلمين في سبيل شهواته الخاصة ، قاتلا في سبيل السلطة لأبيه واخيه واعمامه وبنيه ، وفي ذات الوقت يحج بالمسلمين ويعظهم في خطبة صلاة الجمعة بالقرآن وتعاليم الدين ، عندما يكون هكذا فأن ذلك سيرتد حتما على حقانية الدين الاسلامي في نفوس بعض المسلمين ، الذين لم يميزوا بين خلفاء الحق الذين هم ال بيت محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وبين خلفاء الباطل . والسقوط الاخلاقي للسلاطين الحاكمة باسم الدين قديم منذ تلاعب بني امية بالملك وتسترهم بالإسلام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، ولكنه برز عند بني العباس بسبب الثراء الفاحش للدولة واستتباب الملك وقلة المعترضين وكثرة وعاظ السلاطين ، فكان بروزه سببا في الانحطاط الاخلاقي للمجتمع وقد قيل ان الناس على دين ملوكهم ، وسببا في اختلال عقائد الناس . ينقل المسعودي المؤرخ وصفا للسلوك المزدوج لهارون خامس سلاطين بني العباس فيقول : ((كان مواظباً على الحج، متابعاً للغزو، واتخِاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة، وأظهر ذلك بها و في مِنى وعَرَفَات ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فعمَّ الناسَ إحسانُه، مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور، ومَدَّن المدن، وحَصَّن فيها الحصون ..... وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ورمى بالنشاب في البرجاس، ولعب بالأكْرة والطبطاب. وقرب الحذَاق في ذلك فعم الناس ذلك الفعل . وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس، وبالنرد وقدم اللعَاب، وأجرى عليهم الرزق، فسمى

الناس أيامه - لنضارتها، وكثرة خيرها وخصبها - أيام العروس))[1] ، ثم يستمر المسعودي في نقل وصف حال زبيدة زوجة هارون مصورا حالة البذخ التي كانت تعيشها فيقول :

((فأما الجد والآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها، مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فإنها حفرتها، ومهدت الطريق لمائها في كل خَفْض ورفع وسَهْل وجبل ووَعْر، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة .... وأما الوجه الثاني - مما تتباهى به الملوك في أعمالهم، وينعمون به في أيامهم ويصونون به دُوَلَهم، ويُدون في أفعالهم وسيرهم - فهو أنها أوَّلُ من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلَّلَة بالجوهر ، وصنع لها الرفيع من الوَشْي ، حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصَّعَة بالجوهر وشمع العنبر، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر))[2] و تشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر **!!**

ونحن ننزه كتابنا عن ذكر أمثلة الفجور والانحطاط الاخلاقي لسلاطين بني العباس التي تزخر بذكرها كتب التاريخ ، فالتهتك والفجور والخلاعة والمجون والبذخ كانت سمات السلطة التي تدعي خلافة الرسول الاكرم ، تمزجها ببعض مظاهر التدين ، لتسوقها للرعية بكل استهتار بواسطة حفنة من وعاظ السلاطين المتلبسين بالدين ، وبزمرة من الشعراء الذين باعوا دينهم وضمائرهم للطغاة ، كأبي العتاهية القائل في مدح السلطان :

أتته الخلافةُ منقادةً ... إليه تجرر أذيالها

---

[1] - المصدر السابق ، ج٢ ص١٧٣

[2] - المصدر السابق ، ج٢ص١٧٤

ولم تك تصلح إلا له ... ولم يكن يصلح إلا لها

ولو رامها أحدٌ غيرُهُ ... لزلزلت الأرضُ زلزالها

ولو لم تطعه بناتُ القلوبِ ... لما قبل اللهُ أعمالَها[١]

الامر الذي دعا شاعرا ماجنا مثل بشار بن برد متهما بالزندقة يسخر من المسلمين قائلا :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود [٢]

وهذا حال اليوم وكل يوم ، حيث يهرع معظم الطغاة المتهتكين الى استغلال الدين لتحقيق مكاسب سياسية دنيئة ، ولتبرير جرائمهم وانحطاطهم الاخلاقي وغصبهم لحقوق الناس ، مستعينين بحفنة من المتلبسين بزي الدين والاعلاميين الذين باعوا دينهم وضمائرهم للطاغية السياسي الفاسد ، مما كان لذلك الأثر الأكبر في تشويه مبادئ الدين والأخلاق ، وبالتالي الانحطاط الديني والأخلاقي للمجتمع .

٥- تصاعد حدة الجدل الديني بين المذاهب الاسلامية : فقد استغرقت المذاهب الاسلامية في الجدل في مسائل عويصة مثل خلق القرآن والقدر والصفات الالهية مما لا تتحمله عقول اكثر الناس ، ولا يتوقف على اكثره ثمرة معرفية ولا عملية ، وكان بعض الشعراء كأبي نواس وبشار بن برد يجالس اصحاب الآراء وينظم سخيف ما يذهبون اليه وينشره بين الناس[٣] ، مما جر بعض بسطاء التفكير الى الشك في عقائد الاسلام لعدم استيعابهم التمييز بين الآراء المتعارضة ، وما دفاع الشاعر بشار بن برد عن موقف ابليس في رفضه السجود حيث امره الله تعالى ، وما قول بعضهم :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له ... إياك إياك ان تبتل بالماء

---

(١) راجع : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص١٦٩

(٢) راجع : مروج الذهب ، ج١ ص١٥٤

(٣) راجع : تأريخ اداب العرب ، ج٣ ص٨٦ ومابعدها

إلا تعبير عن تلك الفوضى الجدلية التي تحيي حالة مدرسة الشك اليونانية في المجتمع الاسلامي ، والتي ينقل ابن حجر صورة عنها في ترجمته لعبد الكريم بن ابي العوجاء الزنديق فيقول : ((كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد فكانوا يجتمعون في منزل الأزد فأما عمرو و واصل فصارا الى الاعتزال واما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية واما بشار فبقي متحيرا))[١] .

مما زاد في الطين بلة هو دخول السلطة العباسية على الخط فكان كل من يعارض السلطة او يخالف مذهب السلطة يرمى بالزندقة ، بحيث صارت تهمة الزندقة في العصر العباسي لتصفية المعارضين مثل تهمة العمالة أو الارهاب في عصرنا الحالي . وبما أن التشيع لآل بيت محمد ((صلى الله عليه واله)) والاعتقاد بحقانية خلافتهم للرسول الاكرم - طبقا لخبر الثقلين المتواتر - كان هو الخطر الاكبر الذي يقض مضاجع السلطة الفاسدة ، لأجل ذلك كان للشيعة من تهمة الزندقة الحظ الاوفر والنصيب الاكبر ، و صار كل من يتشيع يوصف بأنه زنديق متستر ، وكل من يتزندق كأبن الراوندي وابن ابي العوجاء يوصف بأنه شيعي في مصادر كتب مذهب السلطة. يقول الحافظ الذهبي وهو من اكابر علماء المخالفين لولاية آل البيت عليهم السلام في ترجمة ابن الراوندي الزنديق : ((أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي الملحد. صاحب الزندقة. كان حياً إلى حدود الثلاثمائة. و كان يلازم الرافضة و الملحدة ، فإذا عوتب قال: أنا أريد أن أعرف مذاهبهم؛ ثم كاشف وناظر، وصنف في الزندقة، لعنه الله.))[٢] ويقصد بالرافضة شيعة آل البيت عليهم السلام .

واليوم حيث تمزق الصراعات المذهبية التي تقف وراءها مخططات سياسية جسد الامة الاسلامية ، يجنح بعض الشباب نحو الشك والالحاد بسبب عدم استيعاب عقولهم للجدل المذهبي .

---

[١] - لسان الميزان ، ابن حجر ، ج٤ ص٥١

[٢] - تأريخ الاسلام ، الذهبي ، ترجمة سيرة ((احمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي)) ، ج٦ ص٩٠٢

ومادام الكلام جرنا لهذا المقام ، دعونا نستطرد في ذكر بعض مواقف آل البيت الاطهار عليهم السلام في محاورة الملاحدة والزنادقة والرد على شبهاتهم ، وهي مما حفظه وتعلمه شيعتهم المهتدون بهديهم - ونحن منهم ان شاء الله تعالى - دفعا للافتراءات المذهبية ، وتصحيحا للأخطاء التاريخية .

= روى الشيخ الكليني عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن محمد بن علي عن عبد الرحمن بن محمد بن أبي هشام، عن أحمد بن محسن الميثمي قال: كنت عند أبي منصور المتطبب فقال: أخبرني رجل من أصحابي قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفع في المسجد الحرام فقال ابن المقفع : ترون هذا الخلق - وأومأ بيده إلى موضع الطواف - ما منهم أحد اوجب له اسم الانسانية إلا ذلك الشيخ الجالس - يعني أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام - فأما الباقون فرعاع وبهائم . فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأني رأيت عنده ما لم أره عندهم فقال له ابن أبي العوجاء: لابد من اختبار ما قلت فيه منه، قال: فقال ابن المقفع: لا تفعل فإني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك ، فقال: ليس ذا رأيك ولكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحل الذي وصفت، فقال ابن المقفع: أما إذا توهمت علي هذا فقم إليه وتحفظ ما استطعت من الزلل ولا تثني عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقال وسمه مالك أو عليك . قال: فقام ابن أبي العوجاء وبقيت أنا وابن المقفع جالسين فلما رجع إلينا ابن أبي العوجاء قال: ويلك يا ابن المقفع ما هذا ببشر وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهرا ويتروح إذا شاء باطنا فهو هذا، فقال له: وكيف ذلك؟ قال: جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال: إن يكن الامر على ما يقول هؤلاء - وهو على ما يقولون - يعني اهل الطواف - فقد سلموا وعطبتم وان يكن الامر على ما تقولون - وليس كما تقولون - فقد استويتم وهم ، فقلت له: يرحمك الله وأي شيء نقول وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلا واحدا، فقال:

وكيف يكون قولك وقولهم واحدا؟ وهم يقولون: إن لهم معادا وثوابا وعقابا ويدينون بأن في السماء إلها وأنها عمران وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد، قال: فاغتنمتها منه فقلت له : ما منعه إن كان الامر كما يقولون أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الايمان به؟ فقال لي: ويلك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك : نشوأك ولم تكن وكبرك بعد صغرك وقوتك بعد ضعفك وضعفك بعد قوتك وسقمك بعد صحتك وصحتك بعد سقمك ورضاك بعد غضبك وغضبك بعد رضاك وحزنك بعد فرحك وفرحك بعد حزنك وحبك بعد بغضك وبغضك بعد حبك وعزمك بعد أناتك وأناتك بعد عزمك وشهوتك بعد كراهتك وكراهتك بعد شهوتك ورغبتك بعد رهبتك ورهبتك بعد رغبتك ورجاءك بعد يأس ويأسك بعد رجائك ، وخاطرك بما لم يكن في وهمك وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك ، وما زال يعدد علي قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه.

= وعنه عن بعض أصحابنا رفعه ، وزاد في حديث ابن أبي العوجاء حين سأله أبوعبدالله عليه السلام قال:

عاد ابن أبي العوجاء في اليوم الثاني إلى مجلس أبي عبدالله عليه السلام فجلس وهو ساكت لا ينطق فقال أبوعبدالله عليه السلام: كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه؟ فقال: أردت ذلك يا ابن رسول الله فقال له أبوعبدالله عليه السلام: ما أعجب هذا تنكر الله وتشهد أني ابن رسول الله ! فقال: العادة تحملني على ذلك، فقال له العالم عليه السلام فما يمنعك من الكلام؟ قال: إجلالا لك ومهابة ما ينطلق لساني بين يديك فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلني هيبة قط مثل ما تداخلني من هيبتك، قال: يكون ذلك ولكن أفتح عليك بسؤال ، وأقبل عليه فقال له: أمصنوع أنت أو غير مصنوع؟ فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء بل أنا غير مصنوع ، فقال له العالم عليه السلام: فصف لي لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون؟ فبقي عبد الكريم مليا لا يحير جوابا ولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول : طويل عريض عميق قصير متحرك ساكن كل ذلك صفة خلقه، فقال له

العالم: فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعا لما تجد في نفسك مما يحدث من هذه الامور، فقال له عبد الكريم: سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ولا يسألني أحد بعدك عن مثلها، فقال أبوعبدالله عليه السلام: هبك علمت أنك لم تسأل فيما مضى فما علمك أنك لا تسأل فيما بعد، على أنك يا عبد الكريم نقضت قولك لأنك تزعم أن الاشياء من الاول سواء فكيف قدمت وأخرت، ثم قال: يا عبد الكريم أزيدك وضوحا أرأيت لو كان معك كيس فيه جواهر فقال لك قائل: هل في الكيس دينار فنفيت كون الدينار في الكيس، فقال لك صف لي الدينار وكنت غير عالم بصفته هل كان لك أن تنفي كون الدينار عن الكيس وأنت لا تعلم؟ قال: لا، فقال: أبوعبدالله عليه السلام فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس فلعل في العالم صنعة من حيث لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة ، فانقطع عبد الكريم وأجاب إلى الاسلام بعض أصحابه وبقي معه بعض.

فعاد في اليوم الثالث فقال: أقلب السؤال فقال له أبوعبدالله عليه السلام: سل عما شئت فقال: ما الدليل على حدوث الاجسام؟ فقال: إني ما وجدت شيئا صغيرا ولا كبيرا إلا وإذا ضم إليه مثله صار أكبر وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الاولى، ولو كان قديما ما زال ولا حال ، لان الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، وفي كونه في الازل دخوله في العدم ، ولن تجتمع صفة الازل والعدم و الحدوث والقدم في شيء واحد، فقال عبد الكريم: هبك علمت في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت واستدللت بذلك على حدوثها فلو بقيت الاشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثهن؟ فقال العالم عليه السلام: إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع فلو رفعناه ووضعنا عالما آخر كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره ، ولكن اجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا فنقول: إن الاشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء إلى مثله كان أكبر وفي جواز التغيير عليه خروجه من القدم ، كما أن في تغييره دخوله في الحدث ، ليس لك وراء ه شيء يا عبد الكريم . فانقطع وخزي.

فلما كان من العام القابل التقى معه في الحرم فقال له بعض شيعته: إن ابن أبي العوجاء قد أسلم فقال العالم عليه السلام: هو أعمى من ذلك لا يسلم، فلما بصر بالعالم قال: سيدي ومولاي ، فقال له العالم عليه السلام: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟ فقال : عادة الجسد وسنة البلد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة ؟ فقال له العالم عليه السلام : أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم ، فذهب يتكلم ، فقال له عليه السلام : لا جدال في الحج ، ونفض رداءه من يده وقال : إن يكن الامر كما تقول - وليس كما تقول - نجونا ونجوت ، وإن يكن الامر كما نقول - وهو كما نقول - نجونا وهلكت ، فأقبل عبد الكريم على من معه فقال : وجدت في قلبي حزازة فردوني . فردوه فمات لا رحمه الله[١] .

٦ـ العَلمانية والثورة الفرنسية

العَلمانية ((secularism)) وترجمت حسب قاموس اكسفورد الى ((الدنيوية))[٢] ، فهي مشتقة من (العالَم) اي الحياة الدنيا بالمعنى المقابل للتدين والحياة الاخرة ، ولا علاقة لها بالعِلم كما قد يتوهم البعض أو يحاول البعض الخداع ، ويعرفها قاموس ميريام وبستر الامريكي بانها : ((اللامبالاة او الاستبعاد للدين))[٣] ، بينما تعرفها دائرة المعارف البريطانية بأنها : ((حركة في المجتمع موجهة بعيدا عن العالم الآخر إلى الحياة على الأرض))[٤] ، وفي الاستعمال السياسي تعني ((مبدأ فصل الدين عن الدولة))[٥] أي عدم اقامة نظام الحكم على اسس دينية وعدم تبني الدولة لدين معين كدين رسمي للدولة ، فهي ايدلوجية تسعى الى تفسير الحياة وادارتها على مبادئ وضعية بعيدا عن الاديان والشرائع الدينية .

---

(١) راجع : كتاب الكافي ، الشيخ الكليني ، ج١ ، كتاب التوحيد ، باب حدوث العالم ، الحديث رقم ٢

٢ ـ قاموس اكسفورد ، مادة ((secular))

٣ ـ قاموس ميريام – وبستر ، مادة ((secularism))

٤ ـ الموسوعة البريطانية ، مادة ((secularism))

٥ ـ قاموس اكسفورد القانوني ، مادة ((secularism))

عصر النهضة

كانت أوربا في القرون الوسطى ((ق٧- ١٥ م تقريبا)) تعيش عصر الظلمات حقيقة ، فقد كان التخلف هو السائد في جميع ميادين الحياة ، وما ان اكملت أوربا حملاتها الصليبية على بلاد الاسلام باسم الدين حتى شرعت في حركة احياء للتراث اليوناني القديم ونهضة حضارية أدت الى ما يسمى بعصر النهضة ((ق ١٥- ١٨م)) ، معتمدة في نهضتها شبه اعتماد كامل على ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية في جميع الميادين الفكرية والعلمية والسياسية والصناعية . يقول ول ديورانت في موسوعته الشهيرة :

((... ويدين علم الجبر، الذي نجد أصوله في مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليوناني من رجال القرن الثالث، باسمه إلى العرب، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات. وأبرز الشخصيات في هذا الميدان العلمي هي شخصية محمد بن موسى (٧٨٠-٨٥٠) المعروف بالخوارزمي نسبة إلى مسقط رأسه في خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقي بحر الخرز؛ وقد كتب الخوارزمي رسائل قيمة في علوم خمسة: كتب عن الأرقام الهندية، وجمع أزياجاً فلكية، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت في بلاد الأندلس الإسلامية هي المعمول بها في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان في الصين؛ وهو الذي وضع أقدم الجداول المعروفة في حساب المثلثات، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون، وأورد في كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية. ولقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، لكن جرارد الكريمونائي Gerard of Cremona ترجمه في القرن الثاني عشر، وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف ...... ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان

الذي اقتصر فيه اليونان- على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة ...... وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية. وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات، وهم الذين أنشئوا أول مدرسة للصيدلة، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمي التحمس في دعوتهم إلى الاستحمام، وخاصة عن الإصابة بالحميات ، وإلى استخدام حمام البخار؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدري والحصبة ، وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية ...... وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازي (٨٤٤-٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases. وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء في وقتهِ فارسياً يكتب بالعربية. وكان مولده في بلدة الري القريبة من طهران، ودرس الكيمياء بنوعيها، والطب في بغداد، وألف ١٣١ كتاباً نصفها في الطب، ضاع معظمها. ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي وهو كتاب في عشرين مجلداً، ويبحث في كل فرع من فروع الطب. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمي Liber cntinens، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض، وكان من الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤. وكانت رسالته في الجدري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين. وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامي ١٤٩٨، ١٨٦٦. وأشهر كتب الرازي كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصوري أهداه إلى أحد أمراء خرسان. وقد ترجمه جرار الكريمو إلى اللغة اللاتينية. وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولاً في أيدي طلاب الطب في أوربا حتى القرن السادس عشر .... ولقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري (الكلينيكي) في

العصور الوسطى .... وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى، وأن الرازي أعظم أطبائها، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها. تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى))[١] .

كانت أوربا خلال عصر النهضة تحكمها امبراطوريات مستبدة متصارعة فيما بينها ، وكان المجتمع منقسما الى عدة طبقات : الاكليروس ((طبقة الكهنوت)) وارستقراطية متسلطة ((طبقة النبلاء الاشراف من الاسر العريقة)) وبرجوازية ثرية ((طبقة التجار واصحاب المصانع)) وبروليتاريا ((الطبقة العاملة الكادحة)) ، وكان الدين السائد هو الديانة المسيحية ، ولكن حدث هناك صراع بين رجال الكنيسة حول قضايا في جوهر العقيدة المسيحية مثل التثليث والتجسيد والتعميد وترجمة الانجيل ، وسبب ذلك يعود الى عدة أمور ، منها :

١- احياء التراث اليوناني الالحادي ((المدارس الذرية والابيقورية والشكية)) ، فقد نسب الكاهن الكاثوليكي الفرنسي غاسندي نفسه الى مذهب ابيقور وكرس له عددا من مؤلفاته وان لم يشاطره في الحاده ، كما تبنى النظرية الذرية وان لم يكن ماديا([٢]) ، بينما بشر الكاهن الايطالي كمبانيلا بالمادية الشيوعية الملحدة ([٣]) ، وافتتح القرن السابع عشر بإحراق الكاهن الايطالي برونو الذي افتتن بالمذاهب الذرية والابيقورية والفلسفة الاسلامية ، وبرغم مسيحيته فأن ((الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلهبه خفية. كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى؟

---

[١] - قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ج١٣ ص١٨١-١٩٦

([٢]) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((غاسندي)) ، ص٤٢٠
- قصة الحضارة ، ج٣٠ ص ٣١٨

([٣]) راجع : قصة الحضارة ، ج٣٠ ص٣٠٢

كيف يتسنى لكاهن مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه؟))[1] .

٢- فضيحة بيع صكوك الغفران ، حيث كانت الكنيسة تبيع صكوكا تضمن الكنيسة بموجبها لمن يشتريها الأمن من العقاب بعد الموت ، وكانت تستعمل الاموال التي تقبضها من بيع الصكوك في تمويل حروبها الصليبية ضد الاسلام ، وفي شؤونها الخاصة كبناء الكنائس والقصور وشراء الاملاك ، ثم فشلت الحروب الصليبية فشلا ذريعا واغتنت الكنيسة بينما افتقر المسيحيون وشعروا بأن الرب قد خذلهم أو أن عقيدتهم فاسدة ((وقام المتشككون الجريؤون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله في أرضه. ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم، لأن محمداً في رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح))[2] .

٣- كذلك ساهم دخول عقائد الاسلام الى أوربا من تركيا شرقا ومن الأندلس غربا في اعادة تفكير رجال الكنيسة في معتقداتهم .

ادى تطور العلوم الطبيعية الى صدام شديد بين الكنيسة وعلماء الطبيعة فيما يتعارض مع فهم علماء الطبيعة وتعاليم الكنيسة ، حيث تسجل محاكمة الكنيسة لغاليليو وسجنه ومصادرة كتبه واذلاله فصلا ساخرا من فصول الاضطهاد العلمي في ذلك العصر ، فلم يقم الرجل بسوى الاعتقاد بكروية الارض ودورانها حول الشمس وحول محورها ، الامر الذي اعتبرته الكنيسة هرطقة وتكذيبا للكتاب المقدس حسب دعواها لأنها كانت تتبنى نظرية بطليموس ((القرن الثاني للميلاد تقريبا)) والتي تقول بأن الارض ثابتة وهي مركز الكون وان الشمس تدور حولها (٣) .

---

[1] - المصدر السابق ، ج٣٠ ص٢٨٩

[2] - المصدر السابق ، ج١٥ ص٦٧

(٣) راجع : قصة الحضارة ، ج٣٠ ص٢٦٨-٢٨٢

كان الاضطهاد والقمع والتمييز الطبقي والفقر والجهل وضريبة الحروب هو حصة الاكثرية الكادحة البروليتاريا ، كما كانت الطبقة البرجوازية - رغم ثرائها - تعاني من احتقار الطبقة الارستقراطية لها مع انها تمثل القوة الاقتصادية للدولة ، وكانت تشعر بالغبن من اعفاء الطبقة الارستقراطية وطبقة الاكليروس من الضرائب وتحميلها على عاتقها . وكانت المصالح متبادلة بين الكنيسة والسلطة الحاكمة ، فقد كانت الكنيسة تمنح للسلطة شرعية وجودها بنظرية الحق الالهي في الحكم ، كما كانت تبرر قمعها وفسادها ، وتعينها في صراعاتها السياسية ، وحتى الزوجية ، كما في قصة هنري الثامن ملك انجلترا الذي من اجل الحصول على ولي عهد ذكر ابتدع كنيسة خاصة ، وانشق عن كنيسة روما الكاثوليكية وتزوج ست نساء بإبطال عقد بعضهن وقتل بعض اخر ، وفي المقابل كانت السلطة تعطي للكنيسة امتيازات خاصة كحق الاشراف على التعليم واخذ الضرائب من الناس ، وتعفيها من ضرائب السلطة على املاك الكنيسة ، وتعينها في حرب الكنائس ، كما تعينها في محاربة العلم والعلماء ، فان كانت الدولة للكنيسة الكاثوليكية قامت بإحراق كل من يخالف تعاليمها ، وان كانت الدولة للكنيسة البروتستانتية قامت بإحراق كل من يخالف تعاليمها ، واحيانا يتعاون الكاثوليك والبروتستانت على احراق اتباع حركة الموحدين المناهضين لعقيدة التثليث ، رغم ان الجميع مؤمن بالله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام واليوم الاخر[١] .

هذه الحالة في ما يسمى ((عصر النهضة)) ادت الى غليان شعبي ونفور من الدين و من تعاليم الكنيسة ، أدى الى سريان الروح اليونانية الالحادية الذرية والابيقورية والشكية بين افراد المجتمع من جميع الطبقات ، يلخصها ول ديورانت بقوله : ((تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية في إنجلترا: ارتباط الكنيسة بصعود الأحزاب السياسية وسقوطها؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة في طبقات المجتمع العليا، ودولية الأفكار بفضل التجارة والسفر، والإلمام المتزايد بالأديان

---

(١) راجع : المصدر السابق ، ج٢٥ ص٥٧-١٩١

والشعوب غير المسيحية، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها، وتطور العلم، وازدياد الإيمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل معجم بيل و الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات ، ومكانة العقل الصاعدة، والمحاولات الجديدة للفلسفة، في أعمال بيكون، وهوبز، ولوك، لتفسير العالم والإنسان تفسيرات طبيعية و- تلخيصاً لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين Deists لاختزال المسيحية إلى مجرد الإيمان بالله والخلود.))[١] .

عصر التنوير

بدأ ما اطلقوا عليه اسم ((عصر التنوير)) في القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو في الحقيقة عصر التدمير وشحذ الهمم للترويج والمجاهرة بالإلحاد والربوبية ومناهضة غطرسة الكنيسة واستبدادها وجهلها وحماقاتها آنذاك ، وقد ابتدأت الحملة في انكلترا فكان ابرز قادتها هم جون تولاند و طوني كولنز ، ولكن كان ديفيد هيوم ((مات ١٧٧٦ م)) اشدهم سفسطة وأبعدهم تأثيرا ، حيث لم يكتف كمن سبقه بتقويض ادلة الكنيسة على معتقداتها ، بل عمد الى احياء الذرية والابيقورية والشكية اليونانية بأبشع صورها الفلسفية ، فشكك بإمكان كل معرفة غير حسية بل فسر العلم بأنه مجرد خيالات مبنية على انفعالات آنية بما تدركه الحواس ، وبالتالي لا يوجد جزم وحقيقة ثابتة ، وانكر مبدأ السببية والتلازم الذاتي بين العلة والمعلول وفسره بأنه مجرد تعاقب لوقوع الحوادث ، وبالتالي لا يمكن استنتاج وجود شيء من وجود شيء لم نشاهده ، وفسر الدين بأنه راجع الى الجهل بأسباب الظواهر الطبيعية والخوف منها ، وفسر الاخلاق برجوعها للمصلحة الشخصية وبالمذهب الابيقوري([٢]) . ثم انتقل هذا الهراء الفلسفي الى باريس وكان ابرز قادة حملة التدمير فيها فولتير

---

[١] ـ قصة الحضارة ، ج٣٥ ص١٧٢

([٢]) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((هيوم)) ، ص٤٠١
قصة الحضارة ، ج٣٥ ص٢٠١-٢٣١

وهولباخ وهلفسيوس وديدرو ودالمبير وجان جاك روسو . وهولباخ ((مات ١٧٨٩ م)) كان كاتبا ثريا ، ملحدا شرسا مجاهرا بإلحاده ، مقهورا من الانظمة التي تحد حرية الاقتصاد ، ومن استكبار طبقة الارستقراط ، ومن طبقة الاكليروس التي تدعم الملك وتتحالف مع الارستوقراطيين وتشكل ازعاجا اخلاقيا ، يفسد على الاثرياء الاستمتاع بالفجور والرذيلة واستعباد الفقراء ، ففتح هولباخ ابواب قصره وخزائنه لدعم الحملة[١] ، وكان بيته وكرا للملاحدة والاباحية وأحد الصالونات التي انتشرت في باريس ، كظاهرة عامة تجمع بين الانحطاط الاخلاقي والفكري[٢] في عصر ازدهرت فيه الاخلاق الابيقورية وتقلصت الفضيلة الالهية فصار الزنى سمة الحضارة ، والعفة صفة يخجل حاملها[٣] . اما فولتير ((مات ١٧٧٨م)) فقد كان اديبا بارزا في عصر اتفق ان تكون فيه صناعة الادب بضاعة رائجة بين جميع طبقات المجتمع ، بل اصبح سمة حضارية تحرص الطبقات العليا على الاتسام بها ، مما اتاح لفولتير الثراء الفاحش والشهرة الشعبية الواسعة وشبكة علاقات مع ملوك وحكومات أوربا ، وقد سخر فولتير كل هذه الامكانيات لقيادة حملة الالحاد وتوجيهها مستعملا شتى وسائل المكر والخداع والدناءة التي تستعملها التنظيمات السرية عادة لأسقاط الانظمة الحكومية ، ولكنه كان يخوض حربه ضد الدين والفضيلة وليس ضد السياسة ، وان كان في اخر سنوات حياته - بعد أن غادره طيش الشباب وعنفوانه - اختار الربوبية وأقر بضرورة الدين لحفظ الاخلاق ، واصطدم بالملاحدة من اتباعه كهولباخ[٤] ، كما اصطدم قبله جان جاك روسو ((مات ١٧٧٨م)) بهم جميعا وانفرد يدعو الى الفضيلة[٥] ، فاشتهر كفيلسوف للتربية والتعليم والفضيلة في جميع انحاء أوربا والعالم [٦] في حين كان سلوكه العملي - كجميع كتيبة التدمير -

---

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((هولباخ)) ، ص٧١٦

(٢) راجع : قصة الحضارة ، ج٣٩ ص١٩٦

(٣) راجع : المصدر السابق ، ج٣٩ ص١٦١

(٤) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((فولتير)) ، ص٤٧١
قصة الحضارة ، ج٣٨ ص١٦٢ وما بعدها

(٥) راجع : قصة الحضارة ، ج٣٩ ص٢٦٤

(٦) راجع : المصدر السابق ، ج٣٩ ص٢٩٣

يجافي الفضيلة تماما ، فقد قضى جان جاك روسو حياته بمعاشرة امرأة بدون زواج ، وانجب منها خمسة اطفال كان يلقي كل طفل منهم بعد الولادة في ملجأ اللقطاء ، رغم اعتراض الأم التي لم يتزوجها إلا في اخر حياته[١] .

فبرز حينئذ في الفكر الاوربي موقفان من الدين هما :

١- تحجيم الدين : وهو موقف حيادي من الدين ، دعا له امثال فولتير(آخر حياته) وسبينوزا وهوبز وجون لوك ومونتسكيو ، وهو يدعو الى فصل السلطة السياسية عن الدين ، مع اقرار حرية التدين للناس . وهو الموقف الذي اطلق عليه فيما بعد اسم ((العَلمانية)) .

٢- الغاء الدين من الحياة : وهو موقف الحادي متطرف مناهض للدين ، دعا له امثال هيوم وهولباخ وهلفسيوس ، وتبناه فيما بعد امثال كارل ماركس و انجلز .

أدت جميع الظروف السابقة الى تفجير الثورة الفرنسية ((١٧٨٩م)) في عصر لويس السادس عشر ، وقد كانت ثورة شعبية عارمة لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية ، ولكن استطاع الملاحدة والربوبيون واللاادريون - امثال ميرابو و روبسبير - الصعود على اكتافها بدعوى تمثيلهم للشعب الفرنسي كنخبة مثقفة مدعومة بالبرجوازية المقهورة[٢] ، بعد ان حركت جماعة فلاسفة عصر التدمير الطبقات المثقفة في العالم المسيحي كله صوب أما ربوبية مهذبة و أما إلحاد مستتر ، فأقر ملاحدة الثورة الفرنسية المنتصرون العَلمانية - نظريا فقط - لاتفاقهم على بغض الدين ، رغم اختلافهم في شكل الحكم الجديد ملكي ام جمهوري ؟ رأسمالي ام اشتراكي ؟ كما اعلنوا حرية التدين وحلوا مؤسسة الكنيسة وحولوا رجال الأكليروس الى موظفين عند سلطة الثورة ، ولا يستحق احدهم الراتب الوظيفي إلا اذا أقسم يمين الولاء للدستور الثوري ، وصادروا

---

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((روسو)) ، ص٣٢٨
قصة الحضارة ، ج٣٩ ص٣٦

(٢) راجع : قصة الحضارة ، ج٤٢ ص٤٨٣

جميع ممتلكات الكنيسة وحولوا الأديرة والكنائس الى اندية ترفيهية ومقرات حزبية[1] . وراحوا - عمليا - يمارسون سياسة نشر الالحاد والاباحية والازراء بالدين الى درجة ممارسة الرذيلة في داخل الكنائس ، واحدثوا المجازر بقتل المئات من رجال الكنيسة ، والالاف من المتدينين باسم الحرية ((فبعد ساعات قليلة من عزل الملك عن عرشه أرسل كومون باريس إلى الأحياء المختلفة فيها قائمة بالقسس المشكوك في أهدافهم والمشكوك في أن لديهم مشاعر معادية للثورة، وكان عدد كبير منهم - كما يفهم - قد أرسلوا إلى السجون المختلفة لذا فقد كانوا ضحية أساسية في أثناء المذبحة))[2] ، حتى اضطروا اخيرا تحت وطأة الخوف من الغالبية المتدينة ، ان يوقفوا هذه السياسية المناهضة للدين ، ويعقدوا صداقة زائفة بين السلطة والدين تفعيلا لتوصية جد الثورة جان جاك روسو ، فقال روبسبير وهو ربوبي ((يؤمن بوجود خالق وينكر تدخله في شؤون العالم وينكر الاديان)) وهو عضو بارز في المؤتمر الوطني الحاكم وحكومة الثورة عام ((١٧٩٣م)) :

((كل فيلسوف وكل شخص يمكنه أن يعتقد من أفكار الإلحاد ما يحلو له · وأي شخص يرغب في أن يجعل هذا الفكر جريمة متهم، لكن الرجل العام (صاحب المسؤولية الحكومية) أو المشرع إذا ما تبنى هذه الأفكار الإلحادية فإنه غبي بل إن غباءه يتضاعف مائة مرة عن غيره ····

فالإلحاد أرستقراطي (يعني فكر الطبقة الارستوقراطية) ؛ ففكرة الموجود الأعظم (الله) الذي يرى ويعلم كل شيء والمطلع على كل ما يناقض الطهارة، ويعاقب على الجرائم الكبرى ، هي فكرة الشعب في الأساس (فكرة شعبية) ، إن هذه الفكرة هي التي تمثل شعور أوربا بل والعالم · إنها فكرة الشعب الفرنسي التي تمثل مشاعره وإحساسه · إن هذه الفكرة (وجود موجود أعظم) لا علاقة لها بالقسس ولا بالخرافة ولا بالطقوس · إنها فقط

([1]) راجع : المصدر السابق ، الملحق ، ص٨٣

[2] ـ المصدر السابق ، الملحق ((عصر نابليون)) ، ص١١٢

مرتبطة بقوة لا يدركها أحد (مبهمة لا يمكن سبر أغوارها) ·· إنها فكرة مرهبة للآثمين وراحة واستقرار للمتمسكين بالفضيلة))[1] .

فكانت العَلمانية : هي الحاد مبطن تم اقراره بالثورة الفرنسية وتسويقه الى العالم بغطاء سياسي . ولذلك تجد زعماء اميركا الاوائل الذين يلقبونهم ((الآباء المؤسسون)) مثل جورج واشنطن وبنيامين فرانكلين وجيفرسون كانوا من ابناء حركة التدمير الفرنسي وكانوا من الملاحدة او الربوبيين[2] ، بل انهم بدهائهم السياسي ونفوذهم في المجتمع الفرنسي ، هم من اغرى الملك الواهن لويس السادس عشر بتقديم الدعم المالي والاشتراك الفعلي في الحرب التي خاضتها المستعمرات البريطانية في قارة اميركا للانفصال عن التاج البريطاني ، وبعد تحقق الانفصال بتوقيع معاهدة فرساي ((١٧٨٣م)) قبيل الثورة الفرنسية، راحوا يدورون في صالونات باريس يمجدون بثورتهم وتنويرها ، ويحرضون الفرنسيين على الاقتداء بها ((وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدر للأفكار الجمهورية. ولقد استمدت تلك الثورة هي أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة، وكان "إعلان استقلالها" مديناً للمفكرين الإنجليز دينه للمفكرين الفرنسيين، ولكن لوحظ أن واشنطن ، وفرانكلين وجفرسون، قد تهيأوا لقبول الفكر الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين. وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتنوير الفرنسي، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة في السلاح، يعترف بها ملك فرنسي، وتمضي في إرساء يدين ببعض الفضل لمونتسكيو))[3] مع انهم - أي زعماء انفصال اميركا - كانوا هم العامل الاكبر في انهيار الاقتصاد الفرنسي قبيل الثورة الفرنسية، فقد ((أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب (حرب الانفصال الأمريكية) وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة. فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا على الصراع بليوناً من الجنيهات، وكانت

---

[1] ـ المصدر السابق ، الملحق ((عصر نابليون)) ، ص١٧٦

([2]) راجع : المصدر السابق ، ج٤٢ ص٣٣٩

[3] ـ المصدر السابق ، ج٤٢ ص٣٩٠

الفائدة على الدين القومي تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد))[1] .

هذا هو الاساس الفكري والاخلاقي الذي نشأت عليه الحضارة الغربية في ((عصر الحداثة)) بعد الثورة الفرنسية ، فقد نشأت متشبعة بروح الالحاد والرذيلة . والعَلمانية وإن لم تستطع فصل الناس عن الدين بشكل مطلق ، حيث بعد انتهاء عصر التدمير الفرنسي عاد للدين النصراني هيبته وإن فقد سلطانه ورونقه ((وبعد عقد من الهياج والنزاع بين الطبقات والحروب الخارجية والقلاقل السياسية والمحاكمات غير القانونية والسلب والنهب والإعدامات والمذابح أصبح أهل فرنسا كلها من ضحايا الثورة فراحوا يتحسرون على الأيام الطيبة التي خلت، أيام لويس السادس عشر وشعروا أنه لا يستطيع أحد أن يعيد إلى فرنسا النظام والسلامة سوى ملك . وأولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم راحوا يصلون مبتهلين طالبين أن يحل اليوم الذي يتخلصون فيه من حكم الملحدين، بل إن بعض المتشككين الذين تخلوا عن المعتقدات الغيبية كلها ، راحوا الآن يتشككون في إمكانية أن يستطيع نظام أخلاقي لا يدعمه دين مقاومة العواطف والانفعالات غير المنضبطة والدوافع غير الاجتماعية ، التي ترسخت في قرون انعدم فيها الأمان وسادت فيها الوحشية والقنص، وراح كثيرون من الآباء غير المتمسكين بعقيدة يرسلون أبناءهم إلى الكنائس لأداء الصلوات، وتأدية طقس الاعتراف وتناول العشاء الرباني حتى يعين ذلك كله على تحليهم بالتواضع ولتقوية عرى الروابط الأسرية وتحقيق السلام مع النفس))[2] ، وظلت عامة الناس تؤمن بالله والنبوة واليوم الاخر بحسب تعاليم الكنيسة التي نعتقد انحرافها عن الدين الحق . وانتهت الثورة الفرنسية بانقلاب نابليون على حكومة الثورة واعلان نفسه امبراطورا لفرنسا ، فاتحا بذلك اكثر العصور دموية وفقرا في تأريخ فرنسا و أوربا([3]) ، لكنها - العَلمانية

---

[1] - المصدر السابق ، ج٤٢ ص٣٤٦

[2] - المصدر السابق ، الملحق ((عصر نابليون)) ، ص٢٦٤

([3]) راجع : المصدر السابق ، الملحق ((عصر نابليون)) ، ص٢٦٦- ٢٧٤

الفرنسية - وفرت الغطاء السياسي الملائم لنشر الالحاد والرذيلة في كل العالم فيما بعد ، ولذلك اعتبرناها ابرز محطات الالحاد على الاطلاق .

٧- الشيوعية

قلنا انه في القرن الثامن عشر الميلادي ((عصر التدمير الاوربي)) برز تياران الحاديان : تيار معتدل يقر بحرية التدين والالحاد، بل يرى اهمية الدين لحفظ النظام الاجتماعي ويمثل هذا التيار كل من فولتير - اخر حياته - وجان جاك روسو ، وتيار مناهض للدين يدعو لإلغاء الدين من الحياة ويمثل هذا التيار كل من هولباخ وهلفسيوس. وقرأنا نحن الثورة الفرنسية ((١٧٨٩م)) بأنها قد كانت أولا ثورة شعبية عارمة لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية لا علاقة لها بالدين، ولكن استطاعت نخبة الملاحدة - امثال ميرابو وروبسبير ومارا- الصعود على اكتافها بدعوى تمثيلهم للشعب الفرنسي ، كنخبة مثقفة مدعومة بالطبقة البرجوازية، المقهورة من تسلط الطبقة الارستقراطية ومن طبقة الاكليروس التي تسبب لها ازعاجا اخلاقيا دائما ، ومن القيود والضرائب التي يفرضها الملك عليها ، وكانت نتيجة الثورة الفرنسية قد انتهت الى تبني التيار الاول بعقد صداقة كاذبة مع الدين فيما يسمى ((النظام العَلماني)) .

لكن في القرن التاسع عشر الميلادي ظهر كارل ماركس ((مات ١٨٨٣م)) الملحد الالماني من اصل يهودي برجوازي[١] ، والذي يتجلى جذر الالحاد اليوناني في عنوان اطروحته ((الفرق في فلسفة الطبيعة بين ديموقريطس وابيقور)) ، وظهر اتباعه ((الماركسيون)) فتبنوا التيار المناهض للدين من تياري عصر التدمير الفرنسي ، ذلك التيار الذي لا يرى في الوجود سوى البعد المادي ، وأن الانسان ما هو الا كتلة مادية من لحم ودم وعظم تنطبق عليها جميع قوانين المادة كما تنطبق على كل شيء في الوجود ، وبالتالي انكروا وجود الروح وانكروا وجود الله تعالى،

---

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((ماركس)) ، ص٦١٨

والدين عندهم ليس الا اكاذيب تم نسجها لتحل محل العلوم الطبيعية[١] ، بل هو عند ماركس واتباعه وسيلة اخترعها الأقوياء والاثرياء لتخدير الفقراء وايهامهم بسعادة زائفة ومنعهم عن التمرد والمطالبة بحقوقهم ، ولذلك فأن تحقيق السعادة الحقيقية للشعوب - حسب زعمهم - يتطلب اجتثاث الدين والغاء أي دور له في حياة الفرد والمجتمع ، يقول ماركس : ((ان التعاسة الدينية هي في شطر منها ، تعبير عن التعاسة الواقعية , وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية . الدين زفرة الإنسان المسحوق ، روح عالم لا قلب له ، كما انه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح ، انه أفيون الشعب . إن إلغاء الدين من حيث هو سعادة وهمية للشعب ، هو ما يتطلبه صنع سعادته الفعلية . ان طلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو طلب التخلي عن وضع بحاجة الى وهم . فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا))[٢] .

كذلك اخذ ماركس واتباعه النظرية الشيوعية السياسية الاجتماعية الاقتصادية من فلاسفة عصر التدمير الفرنسي امثال جان جاك روسو ومابلي و موريللي[٣] ، تلك النظرية القائمة على مجرد افتراض خيالي ، وهو ان المجتمع البشري الاول لم يكن مشتملا على سلطة حاكمة ولا على انظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الافراد ، وكانت كل خيرات الارض مشاعة، أي مبذولة للجميع ، وكان ناتج العمل يقسم بين جميع الافراد بالتساوي ، فكان - حسب زعمهم - مجتمعا مثاليا لا وجود للصراعات فيه أبدا ، حتى ظهرت فكرة الملكية الخاصة باستحواذ البعض على وسائل الانتاج كالأرض وادوات العمل ، فكانت الملكية الخاصة هي اصل جميع الصراعات والويلات والشرور التي حصلت بعد ذلك ، ولأجل ذلك كما قال جان جاك روسو ((كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي هو الانسان الاول الذي سوَر ارضا فرأى أن يقول " هي ملكي " ، وقد وجد من البسطاء من يصدقونه ، فكان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي ، وما أكثر

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((ماركس)) ، ص٢٨٨

٢ - نقد فلسفة الحق عند هيجل ، كارل ماركس ، ص١

(٣) راجع : قصة الحضارة ، ج٣٩ ص١٣٦

ما صان النوع البشري من جرائم وحروب وقتل وبؤس وهول ذلك الذي خلع الاوتاد وملأ الخندق { أي : حبذا لو كان هناك من تصدى لمنع اختصاص الملكية } وهو يقول : " احذروا سماع هذا الدجال فالهلاك يُكتَب لكم اذا نسيتم أن الثمرات للجميع ، وأن الارض ليست ملكا لأحد "))[١] ، ولكن كارل ماركس لم يكتف بهذه النظرة الشيوعية البسيطة للتأريخ والمجتمع ، بل ادخل عليها عنصر الديالكتيك ((التطور الجدلي)) والذي اخذه من الفيلسوف الالماني هيجل ((مات ١٨٣١م)) الذي فسر التاريخ بالديالكتيكية المثالية، لكن ماركس أخذ منه الديالكتيك وفسر التاريخ ماديا ، فزعم ان محور تطور المجتمع وحركة التأريخ هو العامل المادي الاقتصادي فقط ، وأن هذا التطور يكون بشكل جدلي ديالكتيكي، اي صراع بين وضع سائد ووضع معارض له ، ينتهي حتميا وبشكل جبري حتمي ، بصيرورة الوضع المعارض وضعا سائدا حتى يزيله وضع معارض له ، فإن ((تأريخ اي مجتمع لحد الان ليس سوى تأريخ صراعات طبقية))[٢] ابتدأ بظهور الملكية الخاصة ، ولذلك قرأ ماركس الثورة الفرنسية ليس على انها ثورة شعبية من عامة الناس كما قرأناها ، بل هي عنده ثورة الطبقة البرجوازية الرأسمالية على عدوتها الطبقة الارستوقراطية المتسلطة وقد انتهت بتسلط البرجوازية الرأسمالية عدوة الطبقة العمالية البروليتاريا ((فالثورة الفرنسية مثلا قضت على الملكية الاقطاعية لمصلحة الملكية البرجوازية ، وإن ما يميز الشيوعية ليس القضاء على الملكية بشكل عام بل إلغاء الملكية البرجوازية))[٣] ، فمقتضى الديالكتيكية المادية ان ينتهي الصراع حتميا بسيادة طبقة البروليتاريا التي ستلغي الملكية الخاصة البرجوازية وتحل محلها الاشتراكية كمرحلة اولى ، حيث تكون فيها وسائل الانتاج ومقدرات الشعب بيد سلطة حزب العمال ((دكتاتورية البروليتاريا)) مؤقتا لإتمام القضاء على البرجوازية تمهيدا للمرحلة الثانية ، وهي عودة البشرية الى المرحلة الشيوعية ،حيث لا دولة

---

[١] ـ اصل التفاوت بين الناس ، جان جاك روسو ، ص٥٧

[٢] ـ بيان الحزب الشيوعي ، ماركس و أنجلز ، الفصل الاول ، ص١٩

[٣] ـ المصدر السابق ، الفصل الثاني ، ص٤٢

ولا سلطة ولا نظام ولا قوانين ولا دين ، اذ كل هذه الامور هي من افرازات الملكية الخاصة والصراع الطبقي - حسب زعمه - وبالقضاء على البرجوازية الرأسمالية نهائيا تنتفي الطبقية فينتفي الصراع فلا حاجة للسلطة والدولة ، كما يقول لينين الزعيم الشيوعي الماركسي الابرز والحاكم الاول للاتحاد السوفيتي : ((في البيان الشيوعي لخصت دروس التأريخ العامة التي تجعلنا نرى في الدولة هيئة للسيادة الطبقية ، وتفضي بنا الى استنتاج لا مندوحة عنه وهو أن البروليتاريا لا تستطيع اسقاط البرجوازية ، اذا لم تستول في البدء على السلطة السياسية ... وأن هذه الدولة البروليتارية تبدأ بالاضمحلال فور انتصارها ، لأن الدولة لا لزوم لها ولا يمكن أن توجد في مجتمع خال من التناقضات الطبقية))[١] .

تنفيذا للنظرية الشيوعية المادية الديالكتيكية ، قام ماركس واتباعه بتشكيل التنظيم الشيوعي العالمي تحت شعار ((يا عمال العالم اتحدوا)) ، الذي اتخذ على عاتقه بث الشيوعية الالحادية الاباحية ، وحياكة المؤامرات وتدبير الانتفاضات الشعبية والثورات المسلحة ، التي منيت بالفشل جميعها في حياة ماركس وما بعد موته ، الى أن استطاع الماركسيون اخيرا بقيادة لينين من استغلال الانتفاضة الشعبية الروسية السلمية ((ثورة فبراير ١٩١٧م))، والتي كانت أصلا نتيجة لظروف الحرب العالمية الأولى فقفزوا الى السلطة بقوة السلاح، فبعد سقوط نظام قيصر روسيا نيكولا الثاني، وقيام حكومة مدنية مؤقتة برئاسة كيرينسكي تمهيدا لجمعية تأسيسية تنفيذية منتخبة؛ قام الحزب الشيوعي البلشفي بقيادة لينين بثورة مسلحة ((ثورة أكتوبر ١٩١٧م))، واقاموا حكومة ((دكتاتورية البروليتاريا)) واقروا النظام الاشتراكي في روسيا ، ثم استفادوا من امكانات هذه الدولة فتمددوا بالانقلابات والاحتلالات العسكرية ، حتى تمكنوا من تشكيل أول امبراطورية في العصر الحديث بل في التأريخ كله يكون الالحاد هو العقيدة الرسمية لها تحت مسمى ((الاتحاد السوفيتي)) الذي نشر الاحزاب الشيوعية المسلحة في كل العالم ، وتمكن من السيطرة

---

[١] - الدولة والثورة ، فلاديمير لينين ، ص٥٤

على السلطة بالقوة في عدة دول كالصين وكوريا وكوبا ودول أوربا الشرقية ، فأزهق ارواح الملايين ، وأرسل الملايين الى معسكرات الاعتقال للعمل القسري ، وزاد الفقراء فقرا والقمع قمعا ، وراح ينشر الفكر الالحادي الاباحي المناهض للدين والاخلاق في كل ارجاء العالم بشتى الوسائل حتى انتهى امره الى انهيار الاتحاد السوفيتي ، وتفكك دول المنظومة الشيوعية ((١٩٩١م)) ، قبل وصول المجتمع الى المرحلة الشيوعية حسب نبوءة الديالكتية الماركسية الحتمية ، وعادت السلطة في بعض تلك الدول الى النظام الرأسمالي الديمقراطي ، وكفى بذلك برهانا على سقوط اصل النظرية وتهافتها فلسفيا[١] ، بل راحت الحكومات الشيوعية المتبقية تخطب ود عدوها ، الانظمة البرجوازية الرأسمالية ، وراحت الاحزاب الشيوعية في دول العالم تبدل جلدها وتعقد صداقة زائفة مع الدين والاحزاب الدينية والحكومات الرأسمالية ، وتنخرط في العملية السياسية الديموقراطية السلمية ، ولسنا هنا بصدد نقد الفكر السياسي والاقتصادي للماركسية بل بصدد قصة ونقد الالحاد فلا نطيل . إن نقد الالحاد هو بداية نقد بحر الدماء والرذيلة الذي تمثل الشيوعية واحدة من اهم وأبشع نماذجه التاريخية.

لا يوجد شاهد لماركس واتباعه على وجود المجتمع الملحد الشيوعي البدائي المفترض، سوى اكتشاف حياة بعض القبائل المعاصرة لنا من السكان الاصليين لأستراليا والامريكيتين والتي زعموا وجود المشاعة الجنسية والاقتصادية فيها ، فطاروا بذلك فرحا وزعموا انهم قد عثروا على الاثبات التاريخي لشيوعيتهم المفترضة، بدعوى أن هذه القبائل، وهي قبائل معاصرة، تعكس طفولة المجتمع البشري، وأنها مازالت تعيش في مرحلة ما قبل التأريخ، أي مرحلة ما قبل ظهور الملكية الخاصة حسب زعمهم ، ومع كوننا لا نسلم بهذه الدعوى أي دعوى ان حالة هذه القبائل المعاصرة لنا اليوم هي تعكس طفولة المجتمع البشري ولا مثبت عندهم لهذه الدعوى ، ولكن مع ذلك فإن اكتشافهم هذا لها ينقض دعواهم في أن

---

(١) راجع : الموسوعة البريطانية ، الاتحاد السوفيتي

الدين والتدين انما ظهر بظهور المدنية والملكية الخاصة ، فهذا الملحد إنجلز زميل ماركس وشريكه في كتاباته وتنظيراته الشيوعية قد بسط الكلام في عرض حياة تلك القبائل المعاصرة في كتابه (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) بغية اثبات الوجود المفترض للمجتمع الشيوعي البدائي، هو نفسه يقر بوجود الدين والتدين عند تلك القبائل في مرحلتها البربرية، أي قبل ظهور المدنية والملكية الخاصة، فيقول : ((لكل قبيلة افكارها الدينية وطقوسها { وقد اصبح الهنود الامريكيون شعبا متدينا بناء على الموضة التي سادت الشعوب في عصر البربرية } . ولم يقم احد بدراسة افكارهم الدينية دراسة دقيقة الى الآن ، وكل معلوماتنا عن هذه الافكار هي ايمانهم بالأرواح من كل نوع ولم تكن تماثيل الالهة أو الاصنام قد عرفت عندهم بعد إذ كانوا لايزالون في المرحلة الدنيا للبربرية وكانوا يؤمنون بتعدد الالهة . وقد كان لكل قبيلة احتفالاتها الدينية الخاصة بها))[١]. إنه يعترف بوجود الدين في مرحلة ما قبل التاريخ، أي ما قبل ظهور الملكية الخاصة والمجتمع المدني، ويعترف أنه كان سائدا بين الشعوب في المرحلة البربرية، بل اعترف بوجوده في أبعد مراحل ما قبل التاريخ التي سماها ((المرحلة الدنيا للبربرية)) وهذا يكفي جزما في ثبوت بطلان زعمهم بأصالة الإلحاد وكون الدين هو وليد الملكية الخاصة وأنه صناعة الأثرياء لاستعباد الفقراء، أما زعمه بأن الدين كان ((موضة)) أي ظاهرة طارئة فلا دليل عندهم على ذلك، لأن الحفريات والبحث الاركيولوجي لم تأت برقم طيني مكتوب فيه ((إننا العائلة البشرية الأولى ملاحدة ولا يوجد عندنا دين))! وإنما جل تنظيرهم هو على البحث الأنثربولوجي القائم على دراسة هذه القبائل المعاصرة، وهو قد اعترف بسيادة الإيمان والدين في أدنى مراحل تطورها الحضاري.

هذه حجة من لسانهم تثبت اصالة الدين و وجوده عند اقدم السلالات البشرية قبل أن يغرق الوادي بدموع الفقراء الذين يتباكى ماركس عليهم ، وهذا برهان وهمية الالحاد وبرهان تهافت الملاحدة ، فدعوى ان الدين

---

[١] - اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، فردريك انجلز ، الفصل الثالث ، ص٩١

والتدين وليد الفقر والملكية الخاصة والصراع الطبقي هي دعوى باطلة جزما لقيامها على افتراض خيالي ، والعجيب قيام فلسفة تاريخية معرفية اقتصادية اجتماعية سياسية على هذا الافتراض الخيالي، والاعجب هو قيام امبراطورية إلحادية على هذا الخيال الماركسي هي امبراطورية الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الشيوعية .

من العجائب قول بعض شباب اليوم إن الشيوعية ليست فكرا الحاديا إباحيا بل هي فكر سياسي اقتصادي فقط! وإن ماركس والماركسيين والأحزاب الشيوعية ليسوا ملاحدة! فأحوجونا للاستدلال على البديهيات، والسبب في ذلك هو تستر الأحزاب الشيوعية في المنطقة الإسلامية، وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي واضطرارهم لوضع يدهم بيد المؤمنين لأجل المشاركة السياسية تمهيدا لوصولهم للسلطة، وليس هذا تكتيكا جديدا بل هو تكتيك اضطر اليه الحزب الماركسي الشيوعي قبيل امساكه للسلطة في روسيا، وقد وقع في مشروعية استعماله نزاع كبير بين قادة الحزب أنفسهم، حيث أنه يتعارض مع العقيدة الإلحادية للماركسية الشيوعية التي تنص ((فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا)). لينين ((مات ١٩٢٤م)) وهو المفكر الشيوعي الأبرز بعد ماركس وانجلز، وزعيم الحزب الاشتراكي العمالي الماركسي الشيوعي الروسي، وهو المختطف للثورة الشعبية الروسية عام ١٩١٧م والقافز الى السلطة بانقلاب مسلح، يشير الى هذا الجدل الماركسي الحزبي في هذه المسألة في منشور حزبي عام ١٩٠٥م، مؤكدا أن الفلسفة الشيوعية هي قائمة أصلا على المذهب الحسي المادي الذي لا يؤمن بغير المادي، وأن العقيدة الماركسية الشيوعية الواقعية هي الإلحاد وأن الترويج للإلحاد هو واجب كل شيوعي، ومبينا أن السبب في تجنب التصريح عن هذه العقيدة في الإعلان العام لبرنامج الحزب السياسي هو بهدف كسب تضامن العمال المؤمنين وتأييدهم للثورة لإسقاط النظام، فهو يرى أن أولوية اسقاط النظام تفرض الآن التكتم على العقيدة الماركسية الإلحادية، يقول: ((الدين بالنسبة لحزب البروليتاريا الاشتراكية، ليس قضية خاصة... إن هذه الجمعية لا تستطيع ولا ينبغي لها أن تظل غير مهتمة بغياب الوعي

بالجهل والتجهيل المصطبغ بصبغة اعتقادات دينية... إذا كنا كذلك فلماذا لا نعلن في برنامجنا أننا ملحدون؟ ولماذا لا نمنع المسيحيين والمؤمنين من الدخول في حزبنا؟ ... إن برنامجنا قائم كليا على الفلسفة العلمية المادية الصارمة. ولكي نشرح برنامجنا يتحتم علينا أن نشرح الجذور الحقيقية التاريخية والاقتصادية للضباب الديني. إن دعايتنا يجب أن تكون بالضرورة مشتملة على الدعاية للإلحاد. وتحقيقا لهذه الغاية فإن نشر الأدبيات العلمية، التي منعها ولاحقها بقسوة الى اليوم النظام الأوتوقراطي الاقطاعي، يجب أن يصبح الآن مهمة من مهام حزبنا... لكن علينا أن لا نضل، بأي حال من الأحوال، في متاهة التجريدات المثالية لمن يطرحون المشكل الديني طرحا مثاليا محضا خارج الصراع الطبقي على نحو ما يفعل ذلك غالبا الديموقراطيون الراديكاليون المنحدرون من البرجوازية... لن تستطيع الكتب ولا الدعاية أن تنور البروليتاريا اذا لم تستنر بالنضال الذي تقوده هي نفسها ضد قوى الظلام الرأسمالية. إن وحدة هذا النضال الثوري فعلا، نضال الطبقة المقموعة التي تقاتل لخلق جنة الأرض، يهمنا أكثر من وحدة رأي البروليتاريين حول جنة السماء. لهذا السبب لم نعلن ولا ينبغي لنا أن نعلن في برنامجنا الحادنا))[١]. هذه وثيقة صريحة وصادرة من رأس هرم الشيوعية، وقد كانت منشورا حزبيا سريا واليوم صارت علنية ولكن معظم شباب اليوم لا يقرؤون. أما الدعارة الشيوعية بمعنى الإباحية والمشاعة الجنسية، أي الغاء رابطة عقد الزواج، فهو منصوص في البيان التأسيسي للتنظيم الشيوعي العالمي الذي كتبه ماركس وإنجلز: ((ففي شروط حياة البروليتاريا تم تقويض شروط حياة المجتمع القديم. فالبروليتاري لا ملكية له، وعلاقته بالزوجة والأطفال لم يبق جامع يجمعها بعلاقات الأسرة البرجوازية؛ والعمل الصناعي الحديث والاستذلال الحديث، في ظل رأس المال، جرداه سواء في إنكلترا أو في فرنسا، وفي أميركا أو في ألمانيا، من كل طابع قومي؛ والقوانين و الأخلاق و الدين

[١] - نصوص حول الموقف من الدين ، عنوان المقال ((الاشتراكية والدين)) ، ترجمة محمد كبة ، ص٨٦-٨٨ ، والمقال مطبوع ضمن المؤلفات الكاملة ج١٠

هي والأحكام البرجوازية المغرضة الكثيرة، سواسية بالنسبة إليه، تتستر وراءها مصالح برجوازية كثيرة.

فالطبقات السالفة كلها، التي استولت على السلطة، كانت تسعى إلى توطيد مركزها المكتسب بإخضاعها المجتمع بأسره لشروط كسبها. والبروليتاريون لا يستطيعون الاستيلاء على القوى المجتمعية المنتجة، إلا بإلغاء النمط السالف الخاص بهم لامتلاك المال، وبالتالي بالقضاء على كل نمط للامتلاك قائم حتى الآن. والبروليتاريون لا يملكون شيئا يحافظون عليه، وعليهم أن يقوضوا كل الضمانات الخاصة، وكل الحمايات الخاصة، والقائمة حتى الآن.

فحتى الآن كانت الحركات كلها إما حركات أقليات، وإما لمصلحة الأقليات. والحركة البروليتارية، هي الحركة القائمة بذاتها، للأغلبية الساحقة، في سبيل الأغلبية الساحقة. والبروليتاريا، الفئة الدنيا في المجتمع الراهن، لا يمكنها أن تنهض وتنتصب، بدون أن تنسف البنية الفوقية كلها للفئات التي تؤلف المجتمع الرسمي))[١]. فعقد الزواج الديني في الفكر الشيوعي هو عقد امتلاك أحد الزوجين للآخر، وبالتالي فهو أثر من آثار الملكية الاقتصادية الخاصة التي هي سبب بؤس البشرية كما يزعمون، وبزوال الملكية الخاصة الاقتصادية وتحقق المشاعة الاقتصادية يزول الزواج ويحل محله الشراكة والمشاعة الجنسية. تؤكد ذلك ألكسندرا ((ماتت ١٩٥٢م)) المفكرة الروسية والقيادية البارزة في الحزب الشيوعي والحكومة السوفيتية: ((وأمام أعين الفرديين المعاصرين الذين ما يزالون ضعيفي الصلة بالجماعة، بأفراد آخرين، يتراى نور جديد: تحول العلاقات بين الجنسين حيث ينحدر العامل الفيزيولوجي الأعمى أمام تقدم عامل خلاق، التضامن الرفاقي... هذه الصيغة سوف تعلمنا إياها تدريجيا العلاقات الجديدة التي بدأت ترتسم بين الجنسين، علاقات قائمة على مبدأين جديدين: مبدأ الحرية المطلقة، ومبدأ المساواة والتضامن الرفاقي الحقيقي... إن فكرة ملكية الزوجين غير القابلة للانتهاك قد نميت بعناية

[١] - البيان الشيوعي ، ماركس وإنجلز ، الفصل الأول

وتأن من قبل القانون الأخلاقي للطبقة البورجوازية ومثلها الأعلى عن الأسرة الفردية المنغلقة على ذاتها المشيدة بتمامها على أسس الملكية الخاصة... إن طبقة أخرى، طبقة اجتماعية جديدة تتقدم، مطوحة بعرش البورجوازية وبآيديولوجيتها الطبقية، بقانونها الفردي للأخلاق الجنسية. وهذه الطبقة الصاعدة، الطليعة، تحمل بالضرورة في أحشائها بذور علاقات جديدة بين الجنسين، مرتبطة على نحو وثيق بمهامها الاجتماعية الطبقية))[١]. ((إن الزواج في الإتحاد السوفيتي راح يفقد معناه بالتدريج، وقد ألغي الزواج المدني منذ شهور الثورة الأولى، وكذلك سائر أوجه التمييز القانوني بين الولد الشرعي والولد غير الشرعي))[٢]. وما أشبه اليوم بالأمس، فالعقيدة نفسها والتكتيك نفسه يتبعه اليوم أيتام الإتحاد السوفيتي من بقايا الشيوعية البائدة ليروجوا للإلحاد والإباحية فيصطادون بعض الشبيبة، وقد أبكاني ضحكا قول بعض الشباب إن الشيوعيين يصلون ويصومون ويحجون!!

٨ـ الإلحاد المعاصر والعولمة

اتسم الالحاد في القرن العشرين بسمة الماركسية الشيوعية ، التي خطفت شعاراتها البراقة قلوب البعض من الشباب المتصف بالروح الثورية والفقر الفكري والمادي ، ولكنها لم تستطع تحقيق وهمها في القضاء على الدين والفقر ، حتى في الدول التي سيطرت عليها الاحزاب الشيوعية ، بل بالعكس ازداد المؤمنون ايمانا وعددا وتخلى العديد من اقطاب الماركسية عن ماركسيتهم ، مثل المفكر الفرنسي الماركسي السابق روجيه غارودي الذي دخل الاسلام عام ((١٩٨٢ م))، أما طبقة العمال فلم يزدادوا إلا فقرا. ولكن بين ابتهاج النظام الرأسمالي العَلماني الغربي بسقوط النظام الشيوعي السوفيتي ((١٩٩١ م)) وبين هلعه من صعود الاسلام كمنظومة عقائدية سياسية مضادة ، خصوصا بعد قيام الحكومة

---

[١] ـ المرأة الجديدة ، الكسندرا كولونتاي ، ترجمة هنرييت عبودي ، الفصل الثالث ، ص٣٧-٤٠

[٢] ـ محاضرات حول تحرير المرأة ، الكسندرا كولونتاي ، المحاضرة الثالثة عشرة ، ص٧٢

الاسلامية في ايران ((١٩٧٨ م)) ، برز وهم جديد للإلحاد تمثل في مشروع عولمة الديمقراطية الليبرالية الامريكية بمبادئها في العلمانية والحرية السياسية والاقتصادية والدينية والشخصية ، كايدلوجية كونية تمثل - حسب وهمهم - خلاصة ما وصل اليه الفكر الانساني في تحقيق السعادة للمجتمع البشري . وهم لا يقصدون واقعا بالعلمانية سوى رفض أن يكون لله أي دور في سياسة عباده ، ولا يقصدون بالحرية السياسية سوى تقييد الشعوب بدستور يضمن مصلحة الطبقة الرأسمالية ، ولا يقصدون بالحرية الاقتصادية سوى اطلاق عنان الشركات الرأسمالية لتبتلع الفقراء ، ولا يقصدون بالحرية الدينية والشخصية سوى الترويج للإلحاد والانحلال الاخلاقي . جاءت هذه الاطروحة في كتاب ((نهاية التأريخ)) لخبير السياسة الاميركية فرانسس فوكوياما عام ((١٩٩٢ م)) وتولت تطبيقها مؤسسات الالحاد المبطن ليس على الطريقة السوفيتية ، باستعمال القوة الخشنة والاحزاب الثورية التي ثبت فشلها ، بل باستعمال القوة الناعمة عن طريق الضغط السياسي والاقتصادي والاعلامي على الدول ، وفتح عالم الانترنيت والقنوات الفضائية ، وما يسمى منظمات المجتمع المدني والمنتديات الشبابية والأفلام الموجهة لغسل ادمغة الاطفال والشباب ، كما جرى اصطناع نجوم للإلحاد من المرضى عقليا ونفسيا ، المغلفين بشهادات والقاب علمية، لوسم الالحاد بسمة العلمية مع كون العلم منه براء ، فكان ممن اصطنعوه لهذه المهمة ستيفن هوكنج بدعوى انه عبقري الفيزياء الكونية الملحد الذي يبرهن عدم الحاجة لوجود خالق للكون على اساس فرضية الانفجار الكبير ، بينما تكفل ريشارد دوكنز بدعوى انه عبقري البيولوجيا التطورية الملحد بمهمة برهنة عدم الحاجة لوجود خالق للأحياء على اساس فرضية التطور الدارونية ، وسيأتي ان شاء الله عرض فرضياتهم ومناقشتها وبرهان تهافتها وعدم قدرتها على اثبات ما تدعيه .
وقد امتلأت مؤسسات الالحاد المبطن رعبا من الإسلام عند بروز تنظيم القاعدة الإرهابي وقيام فئة متحجرة محسوبة على الاسلام والمسلمين بتفجير مركز التجارة العالمي في اميركا عام ((٢٠٠١ م)) ، ذلك التفجير الضخم الذي أودى بحياة الآلاف من المدنيين ، مما زاد بعض الملاحدة مرضا وحنقا وجزما بأن الدين يشكل اخطر العقبات امام تحقيق

مصالحهم السياسية والاقتصادية في العالم ، وأنه الكابوس الاخلاقي الاكبر الذي يفسد عليهم بهيميتهم ويحول بينهم وبين أن يتمتعوا ويعيشوا كما تعيش الأنعام ، و أعطاهم الذريعة لقيادة حملة للقضاء على الدين بدعوى ان الدين يعني الارهاب وتعكير صفو السلام العالمي **!!** فقد كتب الملحد الامريكي الشرس سام هاريس كتاب ((نهاية الايمان)) عقب ذلك التفجير مؤكدا أن السبيل الوحيد ليتخلص عالمه من الارهاب هو إلغاء الاديان جميعها ، وتطبيقا لذلك رفع نبي الملاحدة المعاصر ريشارد دوكنز شعار ((العالم بلا دين افضل)) و ((يا ملاحدة العالم اتحدوا)) مستلهما بذلك شعارات فولتير في شبابه وماركس في عذابه ، ومعلنا استمرار تيار الالحاد المناهض للدين . والعجيب أن دوكنز بصفته الاكاديمية يزعم تمثيل نسبية المعرفة، والعقلانية العلمية وهي تقوم على مبدأ اللا حتمية العلمية ، أي عدم وجود اليقين في المعرفة والنظريات العلمية ، والاعجب أنه يصنف نفسه في رتبة اللا أدرية أي لا جزم له بوجود او عدم وجود الله ، فشراسته في محاربة الدين واستماتته في سلب المؤمنين ايمانهم هي خيانة لمبادئ العلم عموما ولنفسه خصوصا ، ولا مبرر لذلك سوى المرض النفسي ، أو صفقة تجارية مع مؤسسات الالحاد المبطن . في مقابل تيار الالحاد المعاصر المناهض للدين برز تيار الالحاد المتوافق مع الدين ، وهو التيار الإلحادي الذي يحترم حق الآخرين بالتدين ولا يرى في الدين خطرا يجب على الناس اجتنابه ، ولا يجعل من الالحاد رسالة يبشر بها . من الذين مثلوا تيار الالحاد المتوافق مع الدين كارن ارمسترونج البريطانية الملحدة اللا دينية ((مؤمنة بطريقتها الخاصة)) وقد كانت راهبة كاثوليكية ، ثم اصطدمت بتعاليم الكنيسة فألحدت واعتبرت أن الاديان مجرد اساطير ، لكنها لم تحارب الاديان بل بالعكس تصدت للتيار المناهض للدين وسعت الى التوفيق بين الاديان بنزع خصوصياتها وجمعها في دين اللا دين ، تقول في مقدمة كتابها ((الله لماذا ؟)) : ((لا أنوي اطلاقا الهجوم على أية معتقدات يعتنقها الافراد بصدق))[١] وفي آخر الكتاب تقول : ((فما يردده الملحدون الجدد يكشف عن عدم فهم يعكس تشويشا واضطرابا او عدم

---

[١] ـ الله لماذا ؟ ، كارن ارمسترونج ، ترجمة فاطمة نصر ، ص١٩

اكترات بتشابك والتباس التجربة الانسانية في العصر الحديث ، كما أن جدالهم العنيف للطعن في آراء مخالفيهم يعجز تماما عن الاحاطة بعناية بأديان التوحيد الثلاثة))[1] وهذا برهان على تهافت الملاحدة .

خلاصة قصة الإلحاد

تبين لنا مما تقدم ان جذور الالحاد تعود الى مرحلة الفلسفة اليونانية ((٥٠٠ عام)) قبل الميلاد ، أي أن عمر الإلحاد، مع ملاحظة توسعنا في تعريف الالحاد ، ومع المبالغة في التقدير الزمني ؛ لا يتجاوز ((٢٥٠٠ عام)) تقريبا ، أما قبل ذلك فلم يثبت - تاريخيا - مرور البشرية بمرحلة الحادية ، ويكذب من يزعم ثبوت ذلك ، فكل الحضارات القديمة المعروفة كالحضارة السومرية والبابلية والفرعونية والفارسية والهندية والصينية اليونانية والرومانية وغيرها كانت تؤمن بوجود الإله الخالق للكون ، وإن اختلفت في اسمه وصفاته ورسله وطرق عبادته ، ولا حاجة بنا الى اثبات ذلك بالمصادر ، فحتى الاطفال اليوم يعرفون اسماء بعض آلهة الاغريق وسومر وبابل ومصر ، كزيوس وافروديت و مردوخ وعشتار وآمون وايزيس ، وهذا يثبت اصالة الدين و عرضية الالحاد . ولا يعني تعدد الالهة أن الاصل في الدين هو الاشراك ثم طرأ التوحيد بعد ذلك ، كما يحلو لبعض الملاحدة أن يزعم ، بل إن دين التوحيد هو الاصل ثم طرأ الانحراف والتشريك ، لأن الوحدة أصل الكثرة، وقد بدأ الإنسان بالإيمان بوجود الله وحده ثم تدهورت مفاهيمه الدينية إلى الإيمان بآلهة متعددة ، هذا ما تثبته الكتب المقدسة لليهود والنصارى والاسلام ، كما تثبته أيضا الدراسات الانثربولوجية والسيسولوجية والميثولوجية ، وممن اثبت ذلك - انثربولوجيا - فيلهلم شميدت في كتابه ((أصل فكرة الله)) واثبتته - ميثولوجيا - كارن ارمسترونج في كتابها ((تأريخ الاسطورة)) حيث تقول : ((فقبل البدء بعبادة آلهة عدة اقتصر الناس في أجزاء مختلفة من

---

[1] - المصدر السابق ، ص٤٦٥

العالم على الاعتقاد بإله واحد قادر خلق العالم ويدير شؤون الناس عن بعد. احتوت كل المعابد القديمة على ((الله السماء)) حيث وجده الانثربولوجيين عند القبائل مثل بيجميز الاستراليين والفيوجيانز ، كان هذا الإله السبب الأول لكل الأشياء وحاكم السماء والأرض))[1] . أما اسطورة إن العائلة البشرية الأولى والمجتمع الأول كان ملحدا شيوعيا، فلا وجود لها إلا في خيالات جان جاك روسو والماركسيين، وقد استوفينا البحث في فرضيات الملاحدة حول أصل الدين في بحثنا ((أصل الدين بين تهافت الملاحدة واتفاق المؤمنين)) وأثبتنا أصالة الإيمان والدين.

كما تبين لنا مما تقدم ان الالحاد عبارة عن فايروس اصيبت به الحضارة الانسانية في المرحلة اليونانية لظروف خاصة ولم يتمكن من الفتك بها ، ثم انتقل عبر البحر وتزندق في بغداد ، ولما لم يجدها بيئة مناسبة بل مكافحة للفايروسات عاد الى أوربا وتستر بالعلمانية ، ثم شاع في الشيوعية وتعولم بالعولمة . فهو حالة مرضية تعود جميع اعراضها الى مذاهب الذرية والابيقورية والشكية اليونانية وإن حاول في كل مرحلة ان يطور نفسه او يغير شكله ، وقد عاد اليوم الى المجتمع الاسلامي متوهما وجدان البيئة المناسبة او متخيلا الأمان بوجه من الوجوه ، او محاولا ايجاد تشابه بين ظروف المجتمع الاسلامي المعاصر وظروف المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر ، ومحاولا اعادة تصنيع فولتير و لويس سادس عشر وبابا كاثوليك بنسخ اسلامية ، لإيهام من لا يملك الوعي التاريخي بوجود عصر تنوير حقيقي في القرن الثامن عشر وأنه قد حان حينه في المجتمع الاسلامي ، ونحن قد طالعنا فيما سبق ظروف عصر التدمير الاوربي وحقيقته وكيف كانت نهايته ، فلا ربط بينه وبين ظروف المجتمع الاسلامي المعاصر ، كما لا تشابه بين مقومات الحضارة الاوربية المسيحية والحضارة الاسلامية ، فالحضارة الاسلامية قائمة على الرسالة الإلهية الاشمل الاكمل ، وعلى تعظيم مكارم الاخلاق ، وعلى رجال تجسد فيهم كمال الرسالة وكمال الاخلاق ، ولئن استطاع الفايروس ان يصيب

---

[1] - تأريخ الاسطورة ، كارن ارمسترونج ، ترجمة وجيه قانصو ، ص٢٣

بعض افراد المجتمع الاسلامي فأنه لا يزيد المجتمع إلا حصانة و وعيا وايمانا ، وادركا لطريق الاسلام المحمدي الاصيل الذي اوصى به الرسول الاكرم امته قبيل وفاته فقال صلى الله عليه وآله : ((إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[1] ، ذلك الطريق الذي عمد خلفاء الباطل وسلاطين الجور على مر العصور الى طمسه ، وعمد فقهاء السلطة واعلامها المأجور الى تجنب السير عليه والى تجهيل الامة به ، وعلى اولئك قد اعتمد معظم المستشرقين في تشويه الاسلام ، وعليهم اعتمدت مؤسسات الالحاد العالمي في تضليل بعض افراد المجتمع الاسلامي . و كما ذكرنا فأن تيار الالحاد المناهض للدين قد عاد ولكن هذه المرة بأشد الأدوات الاعلامية مكرا واوسعها نطاقا ، وبتركيز أكبر على دين الاسلام ، لذلك فأن من المتوقع ان تكون هذه المرحلة المعاصرة هي آخر صيحات الملاحدة ونهاية تأريخ الالحاد.

من الجدير بالتنويه إن مما لا يعلمه معظم الناس أن تقنية الأنترنت موجودة منذ السبعينات ولكنها كانت حكرا للأغراض الاستخباراتية الأمريكية، ولم تطلقها أمريكا الآن لعامة الناس حبا في نشر المعرفة والتواصل بين الحضارات وإنما لتكون حصانة طروادة للغزو الثقافي بعولمة الإلحاد والانحطاط الأخلاقي، ولكن يمكرون ويمكر الله بهم، فقد ارتد عليهم مكرهم بانتشار الإسلام في بلدانهم بفضل هذه التقنية نفسها، حتى بدأت صيحاتهم تتعالى وتشريعاتهم تتوالى على مراقبة النت وتقييده، قال تعالى: ((يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)))[2].

---

[1] - الكافي ، ج٢ ، كتاب الايمان والكفر ، باب ((أدنى ما يكون به العبد مؤمنا او كافرا او ضالا)) ، الحديث رقم ١

[2] - سورة الصف

الخلاصة في الدوافع نحو الإلحاد واسباب انتشاره

بعد معرفتنا بقصة الإلحاد اتضحت للقارئ الدوافع للإلحاد المعاصر واسباب انتشاره ، ونلخصها فنقول :

١- قصور النظر العلمي ، بحصر العلم في الجانب المادي المحسوس والدليل الحسي .

٢- قصور الوعي ، وضعف المدركات الذهنية والجهل وقلة الاطلاع وعدم الخبرة .

٣- فساد أصل الفطرة، وانحراف الطبيعة الانسانية.

٤- اهمال الأطفال ، وفساد التربية والتفكك الأسري.

٥- الانحراف الثقافي للمجتمع ، بسبب فساد نظام السلطة وتهميش دور الدين .

٦- قلق الوضع الاقتصادي ، فبعضهم يلحد بسبب الفقر وبعضهم بسبب الثراء.

٧- الصراعات الدينية ، والفتن المذهبية ودخول العامة في الجدل الديني .

٨- استغلال المتسلقين والمتشبثين بالسلطة للدين ، لتحقيق مكاسب سياسية خاصة.

٩- فساد وانحراف بعض المتلبسين بزي رجال الدين .

١٠- تهاون أفراد المجتمع في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١١- الغزو الثقافي ، وعدم مراقبة السلطة للإعلام الانحطاطي .

١٢- الجنوح في مرحلة بداية الشباب نحو التمرد وحب التغيير واتباع الموضات .

١٣- وآخرها وأهمها على الاطلاق ، هو الاسراف في حب الشهوات واتباع الملذات ، وارادة الفجور والتحرر والانفلات من كل ضوابط دينية واخلاقية ، كما قال تعالى : ((بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦)))[١] .

---

١ - سورة القيامة

المحتويات